

قداسة البابا شنوده الثالث

الدموع في الحياة الروحية

Tears

In Spiritual Life

By H. H. Pope Shenouda III

يونيو ١٩٩٠م

الكتاب: الدموع في الحياة الروحية.
المؤلف: قداسة البابا المعظم شنودة الثالث.
الناشر: الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس.
المطبعة: الأنبا رويس الأوفست - العباسية - القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب: ٤٦٦٣/١٩٩٠م.



قداسة البابا شنوده الثالث بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة
المرقسية الـ ١١٧

قصة هذا الكتاب

ترجع قصة هذا الكتاب إلى ثلاثين عامًا....

كان ذلك سنة ١٩٦٠م، وكنت في مغارتي في البحر الفارغ ببرية شيهيت. وكان لديّ وقت لأجيب على أسئلة روحية يرسلها إليّ بعض أبناء الروحيين. وفي إحدى المرات، جاءني خطاب يحوي العديد من الأسئلة، أجبت على أكثر من عشرة منها، وبقي هذا الموضوع. فقلت لصاحب الخطاب "ها أنا قد أجبتك على كل أسئلتك. وبقيت الدموع. حاضر يا (فلان)... من عينيّ الاثنين...".

وحضرت النقاط الخاصة بالموضوع، وبقيت معي... ثم كانت رسامتي للأسقفية، وألقيت محاضرة عن هذا الموضوع سنة ١٩٦٤م... أخيرًا عثرت على أوراقه كلها، ورأيت أن أنشرها، لئلا تتوه وسط أوراق كثيرة، أو تضيع...

البابا شنودة الثالث

يونيو ١٩٩٠م



قمة الدموع

أسمى صورة للدموع، هي قول الإنجيل في قصة إقامة لعازر من الموت:
"بَكَى يَسُوعُ" (يو ١١ : ٣٥).

إنها أقصر آية في الكتاب المقدس. ولعلها في نفس الوقت من أعمق
الآيات في الكتاب المقدس... ولعلها مثلها في التأثير:
بكاء السيد المسيح على أورشليم (لو ١٩ : ٤١).

إنها دموع أعمق من كل تأملاتنا... فيها الحب، والتأثر، ورقة القلب
وحساسيته، والحنو، وربما الحزن أيضًا.
وفيها معانٍ أخرى لا أعرفها.
مَنْ هنا يستطيع أن يصل إلى أعماقها؟!

تطويب البكاء

★ طَوَّبَ السيد المسيح البكاء .

فقال: "طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الْآنَ، لِأَنَّكُمْ سَتَضْحَكُونَ" (لوقا: ٢١) "طوبى للحرزاني الآن، لأنهم سيتعززون" (مت: ٥: ٤).

★ وقيل في المزمور (١٢٦: ٥).

"الَّذِينَ يَزْرَعُونَ بِالْذُّمُوعِ يَحْصُدُونَ بِالْإِبْتِهَاجِ".

★ وقيل في سفر الجامعة لسليمان الحكيم:

"الذَّهَابُ إِلَى بَيْتِ النَّوْحِ خَيْرٌ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى بَيْتِ الْوَلِيمَةِ".

"قَلْبُ الْحُكَمَاءِ فِي بَيْتِ النَّوْحِ، وَقَلْبُ الْجُهَّالِ فِي بَيْتِ الْفَرَحِ" (جا: ٧: ٢، ٤).

وأيضًا:

"الْحُزْنُ خَيْرٌ مِنَ الضَّحِكِ، لِأَنَّهُ بِكَآبَةِ الْوَجْهِ يُصْلَحُ الْقَلْبُ" (جا: ٧: ٣).

مما يدعو إلى الملاحظة أن الكنيسة تدعونا إلى البكاء على خطايانا في

كل يوم، في صلاة الهجعة الثانية من صلاة نصف الليل، حيث نقول:

"أعطني يا رب ينابيع دموع كثيرة، كما أعطيت في القديم للمرأة

الخاطئة"...

"واجعلني مستحقًا أن أبل قدميك اللتين اعتقتاني من طريق الضلالة، وأقدم

لك طيبًا فائقًا، وأقتني لي عمرًا نقيًا بالتوبة".

وهكذا تضع أماننا إنجيل المرأة الخاطئة (لوقا: ٧). لنصليه كل يوم في نصف

الليل، ونأخذ درسًا من دموعها وتوبتها. ويقف كل منا ليصلي أمام الله ويقول:
أعطني يا رب ينباع دموع كثيرة، لأبكي على كبريائي وغضبي وقسوتي
ونجاستي، وتقصيري، وأخطائي باللسان والقلب والفكر... عدم محبتي لك
وللناس، وقلة جدتي في روحياتي، وقلة حرصي على حفظ وصاياك...

وأعطني أيضًا ينباع دموع كثيرة، لأبكي على عدم محبتي."
إن الله يطلب منا أن نبكي باستمرار، ويقول لنا في سفر يوثيل النبي:
"ارْجِعُوا إِلَيَّ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ، وَبِالصَّوْمِ وَالْبُكَاءِ وَالنَّوْحِ" (يؤ ٢: ١٢).

ويقول في سفر ملاخي النبي:

"مُعْطِينَ مَذْبَحَ الرَّبِّ بِالدُّمُوعِ، بِالْبُكَاءِ وَالصُّرَاخِ" (ملا ٢: ١٣).

نحن محتاجون إلى هذه الدموع، طالما نحن على الأرض، يكفي أن ربنا
يسوع المسيح قال في تطويباته:

"طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الْآنَ..." (لو ٦: ٢١)... وعبرة (الآن) تعني هنا
على الأرض. وعبرة "لأنكم تتعزون" تعني هناك في السماء.
لأن الدموع من ثمارها العزاء.

الفصل الأول

أنواع من الدموع

- + دموع الصلاة.
- + دموع التوبة، ودموع الندم.
- + دموع اليأس.
- + دموع الإشفاق على الآخرين أو دموع المشاركة الوجدانية.
- + دموع الفراق. في حالتي الموت أو الوداع.
- + دموع التلاقي بعد الفراق.
- + دموع العجز أو القهر.
- + دموع التأثر، الحساسية، الانفعال.
- + دموع الحزن، الحسرة، الخسارة.
- + دموع في الخدمة.
- + دموع المحبة، والفرح.
- + دموع الشهوة.
- + دموع زائفة.

ما أكثر أنواع الدموع في حياة البشر، تختلف بحسب أسبابها. ونذكر هنا من بين هذه الأنواع:

- ١- دموع الصلاة.
- ٢- دموع التوبة، ودموع الندم.
- ٣- دموع اليأس.
- ٤- دموع الإشفاق على الآخرين أو دموع المشاركة الوجدانية.
- ٥- دموع الفراق. في حالتي الموت أو الوداع.
- ٦- دموع التلاقي بعد الفراق.
- ٧- دموع العجز أو القهر.
- ٨- دموع التأثر، الحساسية، الانفعال.
- ٩- دموع الحزن، الحسرة، الخسارة.
- ١٠- دموع في الخدمة.
- ١١- دموع المحبة، والفرح.
- ١٢- دموع الشهوة.
- ١٣- دموع زائفة.

دموع الصلاة

وهي كثيرة جدًا في الكتاب المقدس، وفي سير القديسين، سنذكرها حينما نتحدث بالتفصيل عن دموع القديسين.

وسببها الحب، والتأثر، وعمق الصلاة التي تصدر من القلب، مع مشاعر الاشتياق والحنين إلى الله، أو عمق في الطلب.

ومن أشهرها دموع داود النبي الذي قال للرب في مزاميره: "انصت إلى دموعي" (مز ١١٩).

ومن أمثلتها دموع حنة زوجة ألقانة. وقد ورد عن صلاتها أنها "صَلَّتْ إِلَى الرَّبِّ، وَبَكَتْ بُكَاءً، وَنَذَرَتْ نَذْرًا" (اصم ١: ١٠، ١١).

أمثلة الدموع في الصلاة كثيرة جدًا في الكتاب المقدس، وفي سير القديسين أيضًا (انظر الباب الثالث).

دموع الندم والتوبة

ومن أمثلتها في الكتاب:

١ - دموع المرأة الخاطئة التي بللت قدمي المسيح بدموعها (لو ٧: ٣٨).

كانت تبل قدميه بالدموع، وتمسحهما بشعر رأسها. وقال السيد المسيح عنها إنها "غسلت رجليّ بالدموع" وأنها أحببت كثيرًا، وغفر لها الكثير. وفضلها الرب على الفريسي الذي يشعر ببره...

لم يكن لديها كلام تقوله، أو تجرب أن تقوله، فتكلمت بدموعها.

الإنسان الشاعر بخطايه، النادم عليها، يخجل أن يتكلم. وتضغط مشاعر الندم والحزن في قلبه، على منابع الدمع في عينيه، فيبكي. ويكون بكاءؤه أصدق تعبيرًا من أي كلام.

ربما يقول إنسان كلامًا بدون مشاعر، أما البكاء فهو مشاعر بدون كلام...

وهي مشاعر صادقة معبرة.

ومن أمثلة دموع التوبة أيضًا:

٢ - دموع داود النبي في توبته:

وهذه ما أعمقها في قوله: "تَعَبْتُ فِي تَنْهَيْدِي. أَعُوْمُ كُلَّ لَيْلَةٍ سَرِيرِي، وَبِدُمُوعِي أَبْلُ فِرَاشِي" (مز ٦: ٦).

وقوله أيضًا: "أَبْكَيْتُ بِصَوْمِ نَفْسِي... جَعَلْتُ لِإِبَاسِي مِسْحًا" (مز ٦٩: ١٠،
١١). "مِنْ صَوْتٍ تَنْهَيْدِي لَصِقَ عَظْمِي بِلَحْمِي... أَكَلْتُ الرَّمَادَ مِثْلَ الْخُبْزِ،
وَمَرَجْتُ شَرَابِي بِدُمُوعٍ" (مز ١٠٢: ٥، ٩).

ولعل من الأمثلة البارزة لدموع الندم والتوبة:

٣- دموع بطرس الرسول بعد إنكاره:

وفي ذلك يقول عنه الكتاب إنه "خَرَجَ إِلَى خَارِجٍ وَبَكَى بُكَاءً مُرًّا" (مت ٢٦: ٧٥).

وهنا نجد البكاء مصحوبًا بمرارة في القلب وفي الدموع.

ومن أمثلة دموع التوبة أيضًا:

٤- دموع الشعب كله في توبة عامة:

وعنها يقول يوشع النبي:

"وَلَكِنْ الْآنَ، يَقُولُ الرَّبُّ، ارْجِعُوا إِلَيَّ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ، وَبِالصَّوْمِ وَبِالْبُكَاءِ وَالنَّوْحِ.
وَمَرِّقُوا قُلُوبَكُمْ لَا تَيَابِكُمْ. وَارْجِعُوا إِلَى الرَّبِّ إِلَهُكُمْ".

"لِيَبْكِ الْكَهَنَةُ خُدَامُ الرَّبِّ بَيْنَ الرِّوَاقِ وَالْمَذْبَحِ، وَيَقُولُوا: اشْفِقْ يَا رَبُّ عَلَى
شَعْبِكَ، وَلَا تُسَلِّمْ مِيرَاثَكَ لِلْغَارِ" (يوشع ٢: ١٢، ١٣، ١٧).

وقد بكى الشعب كله بكاءً عظيمًا أيام عزرا الكاهن بسبب خطاياهم

"وَصَلَّى عَزْرًا وَاعْتَرَفَ وَهُوَ بِأَكِّ وَسَاقِطُ أَمَامَ بَيْتِ اللَّهِ" (عز ١٠ : ١).

وبالمثل يقول القديس بولس الرسول لأهل كورنثوس موبخًا: "لَمْ تَتُوحُوا حَتَّى يُرْفَعَ مِنْ وَسْطِكُمْ الَّذِي فَعَلَ هَذَا الْفِعْلَ؟" (١كو ٥ : ٢).

ويقول القديس يعقوب الرسول:

"تَقُوا أَيْدِيَكُمْ أَيُّهَا الْخُطَاةُ... اكْتَبُوا وَتُوحُوا وَابْكُوا..." (يع ٤ : ٨ ، ٩).

ويشرح ملاخي النبي هذا الأمر فيقول: "مُعْطَيْنَ مَذْبَحَ الرَّبِّ بِالْذُّمُّوعِ، بِالْبُكَاءِ وَالصُّرَاخِ" (ملا ٢ : ١٣).

ومن أمثلة البكاء بسبب الخطية:

★ بكاء الذين طعنوا المسيح، حينما يرونه في مجيئه الثاني.

وفي ذلك يقول سفر الرؤيا:

"هُوَذَا يَأْتِي مَعَ السَّحَابِ، وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ، وَالَّذِينَ طَعَنُوهُ، وَيَتُوحُ عَلَيْهِ جَمِيعُ قَبَائِلِ الْأَرْضِ" (رؤ ١ : ٧).

ولكن النوح في هذا المثال، لا نضعه تحت عنوان التوبة، وقد لا يتصف بالندم أيضًا. ربما تكون دموع الحزن والألم والحسرة، بغير أمل...

دموع الحزن

ولعل من أبرزها في الكتاب:

دموع الحزن على الخطاة، الذين هلكوا أو رفضهم الرب.

ومن أمثلة ذلك: بكاء صموئيل النبي على شاول الملك. وفي ذلك يقول الكتاب: "صَمُوئِيلَ نَاحَ عَلَى شَاوُلَ" (اصم ١٥ : ٣٥)، "فَقَالَ الرَّبُّ لِصَمُوئِيلَ: حَتَّى مَتَى تَتَوَحُّ عَلَى شَاوُلَ، وَأَنَا قَدْ رَفَضْتُهُ؟!" (اصم ١٦ : ١)

★ وبالمثل بكى بولس الرسول على الخدام الذين سقطوا وهلكوا.

فقال: "لَأَنَّ كَثِيرِينَ يَسِيرُونَ مِمَّنْ كُنْتُ أَذْكُرُهُمْ لَكُمْ مِرَارًا، وَالآنَ أَذْكُرُهُمْ أَيْضًا بَاكِيًا، وَهُمْ أَعْدَاءُ صَلِيبِ الْمَسِيحِ، الَّذِينَ نَهَائَتُهُمُ الْهَلَاكُ" (في ٣ : ١٨، ١٩).

★ ويذكر سفر الرؤيا البكاء على بابل، المدينة العظيمة الخاطئة:

فيقول: "وَسَيَبْكِي وَيَتَوَحُّ عَلَيْهَا مُلُوكُ الْأَرْضِ، الَّذِينَ زَنَوْا وَتَنَعَّمُوا مَعَهَا، حِينَمَا يَنْظُرُونَ دُخَانَ حَرِيقِهَا، وَاقْفِيْنَ مِنْ بَعِيدٍ لِأَجْلِ خَوْفِ عَذَابِهَا، قَائِلِينَ: وَيْلٌ! وَيْلٌ!" (رؤ ١٨ : ٩، ١٠).

★ ألعنا نذكر أيضًا بكاء داود على أبشالوم؟!

إنه حقًا حزن على ابنه الذي مات، ولكن هناك نقطة حساسة وهي أنه

مات هالكا... مات خائنا لأبيه، وثائرا عليه، ومحارباً ضده، وزانياً مع نسائه.
 إن داود لم يبكِ على ابنه الذي ولدته امرأة أوريا، وقال: "هَلْ أَقْدِرُ أَنْ أَرُدَّهُ
 بَعْدُ؟ أَنَا ذَاهِبٌ إِلَيْهِ وَأَمَّا هُوَ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيَّ" (٢صم ١٢: ٢٣) ... أما على
 أبشالوم فبكى.

لقد مات هالكا، فلن يذهب إليه أبوه... بل انفصل عنه إلى الأبد...

★ ومن أمثلة البكاء بسبب الحزن، بكاء داود وكل الشعب، لما غزا
 العمالة مدينة صقلع وأحرقوها وسبوا نساءها... هنا يقول الكتاب:
 "فَرَفَعَ دَاوُدُ وَالشَّعْبُ الَّذِينَ مَعَهُ أَصْوَاتَهُمْ وَبَكَوْا حَتَّى لَمْ تَبْقَ لَهُمْ قُوَّةٌ
 لِلْبُكَاءِ" (١صم ٣٠: ١ - ٤).

موقف مؤثر حقاً... وبكاء وصل إلى نهايته القصوى، حتى لم تبق لهم قوة
 للبكاء...

★ ومن أمثلة بكاء الحزن، سفر مراثي إرمياء النبي كله...
 إنه سفر البكاء والدموع... يدخل في بكاء الحزن، ولكنه الحزن بسبب
 الخدمة، وبدافع من الغيرة المقدسة. ويصلح أيضاً أن يرثي به الإنسان ذاته...

دموع الفراق

ليس سهلاً على قلوب ارتبطت بالحب، أن تفترق، وبخاصة لو كان فراقاً
بلا عودة إلى اللقاء، على الأقل على هذه الأرض...

ولذلك نجد في هذا المجال أمثلة لقديسين وقديسات بكوا، بسبب هذا
الفراق، ومن بين هذه الأمثلة:

★ بكاء أبينا إبراهيم على سارة.

وفي ذلك يقول الكتاب بعد موت سارة: "فَأَتَى إِبْرَاهِيمُ لِيَنْدُبَ سَارَةَ وَيَبْكِي
عَلَيْهَا" (تك ٢٣: ٢).

★ كذلك قيل عن مريم أخت لعازر، بعد موته: إنها ذهبت "إِلَى الْقَبْرِ
لَتَبْكِي هُنَاكَ" (يو ١١: ٣١).

★ وقد بكت مريم المجدلية عند قبر السيد المسيح.

وقيل عنها: "أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجًا تَبْكِي" (يو ٢٠: ١١).
حتى أن الملاكين قالوا لها: "يَا امْرَأَةً، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟". ونفس العبارة قالها لها
السيد المسيح (يو ٢٠: ١٣، ١٥).

★ وكانت أرملة ناين تبكي على ابنها الميت. "فَلَمَّا رَأَاهَا الرَّبُّ تَحَنَّنَ
عَلَيْهَا، وَقَالَ لَهَا: لَا تَبْكِي" (لو ٧: ١٣).

★ بل أن الشعب كله، بكى، لما قال لهم القديس بولس: لا ترون وجهي

بعد...

وهكذا يقول سفر أعمال الرسل: "وَكَانَ بُكَاءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْجَمِيعِ، وَوَقَعُوا عَلَى عُنُقِ بُولُسَ يُقَبِّلُونَهُ مُتَوَجِّعِينَ، وَلَا سِيَّامًا مِنَ الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا: إِنَّهُمْ لَنْ يَرَوْا وَجْهَهُ أَيْضًا" (أع ٢٠: ٣٧، ٣٨).

★ ومن أمثلة البكاء بسبب الفراق:

بكاء الشعب بعد موت موسى.

وفي ذلك يقول الكتاب: "فَبَكَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى فِي عَرَبَاتِ مُوَابَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا. فَكَمَلْتُ أَيَّامَ بُكَاءِ مَنَاحَةِ مُوسَى" (تث ٣٤: ٨).

لكل هذا أنا أتعجب من بعض الآباء الكهنة أو الشمامسة أو الأراخنة، الذين ينتهرون النساء بعنف، حينما يبكون في جناز!!

هذا البكاء شيء طبيعي، ومشاعر إنسانية من الصعب كتمانها... إنما ينبغي أن يكون في حدود المعقول، ولا يتحول إلى صراخ مستمر يعطل الصلاة في الكنيسة.

دموع التأثر

وتبدو هذه واضحة جدًا، في لقاء يوسف الصديق بإخوته وبأبيه، بعد سنوات من الفراق.

★ حينما سمع يوسف إخوته يقولون بعضهم لبعض: "حَقًّا إِنَّا مُذْنِبُونَ إِلَى أَخِينَا الَّذِي رَأَيْنَا ضِيقَهُ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَرْحَمَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ" ... يقول الكتاب عن يوسف: "فَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ وَبَكَى" (تك ٤٢: ٢١، ٢٤).

★ وأيضًا حينما أعلن نفسه لهم، يقول الكتاب عنه إنه: "فَصَرَخَ: أَخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي. فَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عِنْدَهُ حِينَ عَرَفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ بِنَفْسِهِ. فَأَاطَقَ صَوْتُهُ بِالْبُكَاءِ ... وَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: أَنَا يُوسُفُ. أَحْيِ أَبِي بَعْدُ؟" (تك ٤٥: ١ - ٣).

★ وكذلك حينما التقى بأخيه بنيامين، يقول الكتاب: "ثُمَّ وَقَعَ عَلَى عُنُقِ بَنِيَامِينَ أَخِيهِ وَبَكَى، وَبَكَى بَنِيَامِينُ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ وَبَكَى عَلَيْهِمْ" (تك ٤٥: ١٤، ١٥).

★ وبنفس التأثر، وبنفس البكاء، كان لقاء يوسف الصديق مع أبيه يعقوب. يقول الكتاب في ذلك: "فَشَدَّ يُوسُفُ مَرْكَبَتَهُ وَصَعِدَ لاسْتِقْبَالَ إِسْرَائِيلَ أَبِيهِ إِلَى جَاسَانَ".

"وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا" (تك ٤٦: ٢٩).

إنها مشاعر إنسانية حساسة.

★ ولعلنا على نفس القياس الإنساني.

نذكر لقاء يعقوب بابنة خاله راحيل.

يقول الكتاب في ذلك: "وَقَبَّلَ يَعْقُوبُ رَاحِيلَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ وَبَكَى. وَأَخْبَرَ يَعْقُوبُ رَاحِيلَ أَنَّهُ أَخُو أَبِيهَا، وَأَنَّهُ ابْنُ رِفْقَةَ" (تك ٢٩: ١١، ١٢).

لقد تأثر أن الرب قد وفّقه إلى بيت خاله، وأنه رأى ابنة خاله أمامه بتدبير إلهي. فرفع صوته وبكى...

إنها مشاعر إنسانية. يمكن بها أن يبكي الإنسان تأثرًا في حالة اللقاء، كما أيضًا في حالة الفراق...

دموع المشاركة

وهي دموع لأجل الآخرين، أو مع الآخرين، وعنها يقول الرسول: "...
وَبَكَاءٌ مَعَ النَّبَاكِينَ" (رو ١٢: ١٥).

ولهذا النوع أيضًا أمثلة عديدة في الكتاب المقدس، منها قول القديس يوحنا الإنجيلي:

★ "وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ جَاءُوا إِلَى مَرْثَا وَمَرْيَمَ لِيُعَزُّوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا" (يو ١١: ١٩). ولعل أبرع وأعمق ما قيل في هذه المناسبة: "قَلَمَّا رَأَاهَا يَسُوعُ - أَي مَرْيَمَ - تَبْكِي، وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ" (يو ١١: ٣٣)...

★ "بَكَى يَسُوعُ" (يو ١١: ٣٥).

★ ولعل من الأمثلة الأخرى في هذا المجال بكاء بنات أورشليم، لما راين السيد المسيح يساق إلى الصليب، إذ "تَبِعَهُ جُمُهورٌ كَثِيرٌ مِنَ الشَّعْبِ، وَالنِّسَاءِ اللَّوَاتِي كُنَّ يَلْطِمْنَ أَيْضًا وَيَنُحْنَنَّ عَلَيْهِ" (لو ٢٣: ٢٧).

★ من الأمثلة أيضًا بكاء الأمهات على أبنائهن في أية ضيقة.

فلما فرغ الماء من هاجر وابنها، "طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الْأَشْجَارِ، وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا... قَالَتْ: لَا أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ... وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ" (تك ٢١: ١٥، ١٦).

دموع الفرح

ومن أمثلة ذلك، بكاء الشعب عند إعادة بناء الهيكل بعد السبي، في أيام زربابل. ويقول في ذلك سفر عزرا الكاهن: "وَكثِيرُونَ مِنَ الْكَهَنَةِ وَاللَّوِيِّينَ وَرُؤُوسِ الْآبَاءِ الشُّيُوخِ، الَّذِينَ رَأَوْا الْبَيْتَ الْأَوَّلَ، بَكَوا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ عِنْدَ تَأْسِيسِ هَذَا الْبَيْتِ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ. وَكَثِيرُونَ كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالْهَتَافِ بِفَرَحٍ. وَلَمْ يَكُنِ الشَّعْبُ يُمَيِّزُ هَتَافَ الْفَرَحِ مِنْ صَوْتِ بُكَاءِ الشَّعْبِ" (عز ٣: ١٢، ١٣).

دموع مرفوضة

منها دموع اليأس:

★ ولعل من أمثلتها دموع عيسو التي قال عنها الرسول: "لَيْلًا يَكُونُ أَحَدٌ... مُسْتَبِيحًا كَعِيسُو، الَّذِي لِأَجْلِ أَكَلَةٍ وَاحِدَةٍ بَاعَ بِكُورِيَّتَهُ. فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَيْضًا... لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرِثَ الْبَرَكَةَ رُفِضَ، إِذْ لَمْ يَجِدْ لِلتَّوْبَةِ مَكَانًا، مَعَ أَنَّهُ طَلَبَهَا بِدُمُوعٍ" (عب ١٢: ١٦، ١٧).

دموع عيسو كانت نوعًا آخر.

★ كانت دموع العجز والقهر.

أو كانت دموع الغيظ والحقْد على أخيه، ودموع اليأس من نوال البركة...

"قَالَ عِيسُو لِأَبِيهِ: أَلَيْكَ بَرَكَهٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ يَا أَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضًا يَا أَبِي.
وَرَفَعَ عِيسُو صَوْتَهُ وَبَكَى" (تك ٢٧: ٣٨). وقيل إنه لما سمع ببركة يعقوب
"صَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَمَرَّةً جَدًّا" (تك ٢٧: ٣٤).

البركة العظمى التي نالها يعقوب، أن السيد المسيح يأتي من نسله،
وبنسله تتبارك جميع قبائل الأرض (تك ٢٨: ١٤). ولم يكن ممكناً أن يأتي
المسيح من عيسو ويعقوب معاً.

لذلك عبارة "أَلَيْكَ بَرَكَهٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ يَا أَبِي؟! تعني من جهة هذا الموضوع
جهلاً تاماً بالبركة ونوعها!! وكانت صرخته صرخة غيظ وقهر، وبكاؤه بكاء
عجز ويأس...

ومن أمثلة هذا البكاء اليأس المرفوض أيضاً:

★ بكاء الهالكين في الأبدية.

إذ يقول الكتاب عنهم إنهم: "يُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ
الْبُكَاءُ وَصْرِيرُ الْأَسْنَانِ" (مت ٨: ١٢). ويقول أيضاً عن نهاية العالم: "يُرْسَلُ
ابْنُ الْإِنْسَانِ مَلَائِكَتَهُ فَيَجْمَعُونَ مِنْ مَلَكُوتِهِ جَمِيعَ الْمَعَائِرِ وَقَاعِلِي الْإِثْمِ،
وَيُطْرَحُونَهُمْ فِي أَتُونِ النَّارِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصْرِيرُ الْأَسْنَانِ" (مت ١٣: ٤١، ٤٢).
ونفس الكلام يتكرر في (مت ٢٤: ٥١)، وفي (لو ١٣: ٢٨). فما
جدوى مثل هذا البكاء!؟

دموع الشهوة

إنها دموع تضيف خطأ جديدًا، إلى خطيئة الشهوة، فتصبح خطية مركبة.

من أمثلتها خطأ الشعب، حينما بكى في البرية مشتهيًا أن يأكل لحمًا!!

وفي ذلك يروي سفر العدد:

"وَاللَّفِيفُ الَّذِي فِي وَسْطِهِمْ اشْتَهَى شَهْوَةً. فَعَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَيْضًا وَبَكَوْا وَقَالُوا: «مَنْ يُطْعِمُنَا لَحْمًا؟! قَدْ تَذَكَّرْنَا السَّمَكَ الَّذِي كُنَّا نَأْكُلُهُ فِي مِصْرَ مَجَانًّا، وَالْقَيَْاءَ وَالْبَطِّيخَ وَالْكَرَاثَ وَالْبَصَلَ وَالثُّومَ...» (عد ١١: ٤، ٥). وقال موسى للرب: "...مَنْ أَيْنَ لِي لَحْمٌ حَتَّى أُعْطِيَ جَمِيعَ هَذَا الشَّعْبِ؟ لَأَنْتُمْ يَبْكُونَ عَلَيَّ قَاتِلِينَ: أَعْطِنَا لَحْمًا لِنَأْكُلَ" (عد ١١: ١٣).



الفصل الثاني

الدموع في الخدمة

+ أسباب البكاء في الخدمة

١ - نل من أشهرها دموع إرميا النبي.

هذه التي سُجلت في سفر كامل من الأسفار المقدسة دُعي (مراثي إرميا).

والذي يشمل صلوات كثيرة، كلها تنهد وحسرة، كأن يقول:

"أَذْكَرُ يَا رَبُّ مَاذَا صَارَ لَنَا. أَشَرِفُ وَانْظُرْ إِلَى عَارِنَا. قَدْ صَارَ مِيرَاتُنَا لِلْعُرَبَاءِ... صِرْنَا أَيْتَامًا بِلاَ أَبٍ. أُمَهَاتُنَا كَأَرَامِلَ" (مرا: ٥: ١ - ٣).

ويقول أيضًا: "مَضَى فَرَحُ قَلْبِنَا. صَارَ رَقْصُنَا نَوْحًا... مِنْ أَجْلِ هَذَا حَزِنَ قَلْبُنَا. مِنْ أَجْلِ هَذِهِ أَظْلَمَتْ عُيُونُنَا... لِمَاذَا تَسَّانَا إِلَى الْأَبَدِ وَتَتْرُكُنَا طُولَ الْأَيَّامِ؟ أُرَدُّدُنَا يَا رَبُّ إِلَيْكَ فَتَرْتَدُّ. جَدَّدَ أَيَّامَنَا كَالْقَدِيمِ. هَلْ كُلُّ الرَّفْضِ رَفَضْتَنَا؟!" (مرا: ٥: ١٥ - ٢٢).

ويشرح في هذا السفر بكاء مملكة يهوذا فيقول:

"عَلَى هَذِهِ أَنَا بَاكِئَةٌ. عَيْنِي، عَيْنِي تَسْكُبُ مِيَاهًا لِأَنَّهُ قَدْ ابْتَعَدَ عَنِّي الْمُعْزِي، رَأْتُ نَفْسِي" (مرا: ١٦: ١). "كَلَّمْتُ مِنَ الدُّمُوعِ عَيْنَايَ. غَلَّتْ أَحْشَائِي" (مرا: ١١). "سَكَبْتُ عَيْنَايَ يَنَابِيعَ مَاءٍ عَلَى سَحْقِ بِنْتِ شَعْبِي. عَيْنِي تَسْكُبُ وَلَا تَكْفُ بِلاَ انْقِطَاعٍ حَتَّى يُشْرِفَ وَيَنْظُرَ الرَّبُّ مِنَ السَّمَاءِ" (مرا: ٤٨ - ٥٠).

هنا بكاء بلا انقطاع، وبلا عزاء، حتى تعبت العين من البكاء، وشعور بأن الله قد ترك النفس أو نسيها أو رفضها!! وصلاة... مع صلاة إليه أن يرجع.

٢- ولعل من الأمثلة أيضًا بكاء المسيبين عند أنهار بابل. وفي ذلك يقول

المرتل:

"عَلَى أَنْهَارِ بَابِلَ هُنَاكَ جَلَسْنَا، بَكَيْنَا عِنْدَمَا تَذَكَّرْنَا صُهيُونَ. عَلَى الصِّفْصَافِ فِي وَسْطِهَا عَلَقْنَا قِيثَارَاتِنَا. لِأَنَّهُ هُنَاكَ سَأَلْنَا الَّذِينَ سَبَّوْنَا أَقْوَالَ التَّسْبِيحِ... كَيْفَ نُسَبِّحُ تَسْبِيحَةَ الرَّبِّ فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟! (مز ١٣٧: ١ - ٤).

٣- ومن الأمثلة أيضًا بكاء نحemia لما سمع أخبار سيئة عن أورشليم.

فقال: "قَلَمَّا سَمِعْتُ هَذَا الْكَلَامَ جَلَسْتُ وَبَكَيْتُ وَنُحْتُ أَيَّامًا، وَصُمْتُ وَصَلَّيْتُ أَمَامَ إِلَهِ السَّمَاءِ" (نح ٤: ٤).

وفي صلاته اعترف بخطايا وخطايا كل الشعب، وطلب من الرب رحمة، مذكرًا إياه بمواعيده للآباء.

٤- ونفس الوضع بالنسبة إلى عزرا الكاهن، لما عرف خطايا الشعب.

فبكى وأبكى الشعب معه.

وفي ذلك يقول الكتاب: "قَلَمَّا صَلَّى عَزْرَا وَاعْتَرَفَ وَهُوَ بَاكِ وَسَاقِطُ أَمَامَ بَيْتِ اللَّهِ، اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ إِسْرَائِيلَ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ، لِأَنَّ الشَّعْبَ بَكَى بُكَاءً عَظِيمًا" (عز ١٠: ١).

وفي غير المراثي، يقول إرمياء النبي في سفره:

"يَا لَيْتَ رَأْسِي مَاءٌ، وَعَيْنَيَّ يَنْبُوعُ دُمُوعٍ، فَأَبْكِي نَهَارًا وَلَيْلًا قَتَلَى بَنَتِ شَعْبِي" (إر ٩ : ١).

٥- وقد بكى دانيال النبي أيضًا من جهة سنوات السبي:

وقال في ذلك: "فَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى اللَّهِ السَّيِّدِ طَالِبًا بِالصَّلَاةِ وَالتَّضَرُّعَاتِ، بِالصَّوْمِ وَالْمَسْحِ وَالزَّمَادِ. وَصَلَّيْتُ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِي وَاعْتَرَفْتُ وَقُلْتُ... أَخْطَأْنَا وَأَثْمْنَا وَعَمَلْنَا الشَّرَّ، وَتَمَرَّدْنَا وَحَدَّنَا عَنْ وَصَايَاكَ وَعَنْ أَحْكَامِكَ..." (دا ٩ : ٣-٥).

"فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ أَنَا دَانِيَالُ كُنْتُ نَائِحًا ثَلَاثَةَ أَسَابِيعِ أَيَّامٍ لَمْ أَكُلْ طَعَامًا شَهِيًّا وَلَمْ يَدْخُلْ فِي فَمِي لَحْمٌ وَلَا خَمْرٌ، وَلَمْ أَذْهِنْ حَتَّى تَمَّتْ ثَلَاثَةُ أَسَابِيعِ أَيَّامٍ" (دا ١٠ : ٢، ٣).

وهنا نرى البكاء مصحوبًا بالصلاة والصوم والزهد والاعتراف بالخطايا.

٦- من أمثلة البكاء في الخدمة بكاء ميخا النبي "مِنْ أَجْلِ إِيَّاهُ يَعْشُوبُ، وَمِنْ أَجْلِ خَطِيئَةٍ بَنِيَتْ إِسْرَائِيلَ" (مي ١ : ٥). وفي هذا يقول:

"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْوُحُ وَأُولُولُ. أَمْشِي خَافِيًا وَعُزْيَانًا. أَصْنَعُ نَحِيبًا كَبَنَاتِ آوَى، وَنُوحًا كَرِعَالِ النَّعَامِ. لِأَنَّ جِرَاحَاتِهَا عَدِيمَةُ الشِّفَاءِ، لِأَنَّهَا قَدْ أَتَتْ إِلَى يَهُودَا..." (مي ١ : ٨، ٩).

٧- ولعل في قمة البكاء في الخدمة بكاء ربنا يسوع المسيح على

أورشليم:

وفي ذلك يقول الكتاب: "وَفِيمَا هُوَ يَقْتَرِبُ نَظَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَكَى عَلَيْهَا قَائِلًا: ... فَإِنَّهُ سَتَأْتِي أَيَّامٌ وَيُحِيطُ بِكَ أَعْدَاؤُكَ بِمِثْرَسَةٍ... وَيَهْدِمُونَكَ وَبَنِيكَ فِيكَ، وَلَا يَتْرَكُونَ فِيكَ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ..." (لو ١٩: ٤١: ٤٤)

٨- ومن أمثلة البكاء أيضًا بكاء بولس الرسول في الخدمة:

فإنه يقول لكهنة أفسس: "أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَخَلْتُ أَسِيًّا، كَيْفَ كُنْتُ مَعَكُمْ كُلَّ الزَّمَانِ، أَحَدُمُ الرَّبَّ بِكُلِّ تَوَاضُعٍ وَدُمُوعٍ كَثِيرَةٍ، وَبِتَجَارِبٍ أَصَابَتْني بِمَكَائِدِ الْيَهُودِ".

"لِذَلِكَ اسْهَرُوا، مُتَذَكِّرِينَ أَنِّي ثَلَاثَ سِنِينَ لَيْلًا وَنَهَارًا، لَمْ أَفْتُرَ عَنْ أَنْ أُنْذِرَ بِدُمُوعٍ كُلِّ وَاحِدٍ" (أع ٢٠: ١٨، ١٩، ٣١).

وحتى في رسائله يقول لأهل كورنثوس: "لَأَنِّي مِنْ حُزْنٍ كَثِيرٍ وَكَأَبَةٍ قَلْبٍ كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ بِدُمُوعٍ كَثِيرَةٍ، لَا لِكَيْ تَحْزَنُوا، بَلْ لِكَيْ تَعْرِفُوا الْمَحَبَّةَ الَّتِي عِنْدِي وَلَا سِيَّمَا مِنْ نَحْوِكُمْ" (٢كو ٢: ٤).

٩- وبالمثل كان تلاميذ القديس بولس في بكائهم.

فهو يرسل إلى تلميذه تيموثاوس ويقول له: "... أَذْكُرُكَ بِلَا انْقِطَاعٍ فِي طَلِبَاتِي لَيْلًا وَنَهَارًا، مُشْتَقًا أَنْ أَرَاكَ، ذَاكِرًا دُمُوعَكَ" (٢تي ١: ٣، ٤).

أسباب البكاء في الخدمة

- ★ القلب الحساس يتأثر من حالة الناس المخدمين.
- ★ يتأثر إذ يتذكر خطاياهم. كيف ضعفوا، كيف جرحوا قلب الله.
- ★ ويتأثر بنتائج الخطية، وما جلبته من متاعب ومن ويلات... أو بما سوف تجلبه من غضب الله.
- ★ بل قد يتأثر فيما هو يوبخ على الخطايا، متذكراً ضعفه هو أيضاً، وأنه ما كان يريد أن يوبخ، فينذر بدموع...
- ★ وقد يبكي الإنسان في الخدمة، طالباً معونة الله، أو طالباً رحمته ومغفرته. أو يبكي وهو يعرض على الله في صلاته، ما وصل إليه الأمر من ضياع.
- ★ يبكي الإنسان في الخدمة شاعراً بضعفه، ومتوسلاً إلى الله أن يتدخل، لأن الأمور لا تحلّ بدونه.
- ★ أو قد يبكي من شدة المشاكل، ومن ضغط العدو عليه، أو من شماته الأعداء وتغييرهم. كما قال داود النبي:
- "صَارَتْ لِي دُمُوعِي خُبْرًا نَهَارًا وَلَيْلاً إِذْ قِيلَ لِي كُلَّ يَوْمٍ: أَيْنَ إِلَهُكَ؟! هَذِهِ أَذْكُرُهَا فَأَسْكُبُ نَفْسِي عَلَيَّ..." (مز ٤٢: ٣، ٤).

الفصل الثالث

القديسون والدموع

١ - القديس أرسانيوس من القديسين الذين اشتهروا كثيراً بالبكاء ...

حتى قيل إن رموش عينيه تساقطت من كثرة البكاء. وتكوّن أخدودان (حفرتان) على خده من كثرة البكاء.

وكان في الصيف يبلى الخوص بدموعه. وكان يضع على ركبتيه قطعة من القماش تسقط عليها دموعه.

وفي ساعة موته بكى كثيراً، فقال له تلاميذه: "حتى أنت يا أبانا تخاف من هذه الساعة؟" فقال لهم: "إن فزع هذه الساعة ملازم لي منذ دخلت إلى الرهينة".

إن كان القديس العظيم أرسانيوس يبكي هكذا، فماذا نقول نحن عن أنفسنا؟

وماذا نقول عن فزع تلك الساعة الذي كان يلازمه؟!

ويلازم مَنْ؟ يلازم أرسانيوس العظيم مثال الوحدة والصمت في بستان الرهبان، الذي كان البابا ثاؤفيلس يشتهي أن يقابله. وكان القديسون يقولون له: "لماذا تهرب منا يا أبتاه؟!" فيجيب "يعلم الله أنني أحبكم جميعاً. ولكنني لا أستطيع أن أتكلم مع الله والناس في نفس الوقت..."

أرسانيوس العظيم الذي كان يقف للصلاة وقت الغروب، والشمس وراءه، ويظل واقفاً يصلي حتى تشرق أمامه من جديد، مقضياً الليل طوله في الصلاة...

أرسانيوس المتضع، معلم أولاد الملوك، الذي كان يستشير ذلك المصري

الأمي، ويقول له إنه لم يعرف بعد ألفا فيتا التي يتقنها ذلك المصري. بل يقول أيضًا إنه تعلم اللاتينية واليونانية، ولكنه لم يعرف بعد كيف ينقي الفول مع رهبان الإسقيط.

آية خطايا فعلها القديس أرسانيوس حتى كان يبكي ويفزع من تلك الساعة؟!

هل بعد كل هذا نسرع نحن إلى العزاء والفرح من مبدأ الطريق، ونتباهى بأن خطايانا قد غُفرت؟! ونبحث عن المواهب؟! ونطالب بنصيبنا في الميراث؟! وننسى أنفسنا.

إن الدموع تحتاج إلى تواضع قلب، ويناسبها جدًا أن يعرف الإنسان ذاته، ويحاسب نفسه ويلومها.

قيل إنه لما حانت وفاة القديس البابا ثاوفيلس، قال:

"طوباك يا أنبا أرساني، لأنك بكيت طول حياتك من أجل هذه الساعة".

٢- وعندما سمع أنبا بيمن أن القديس أرسانيوس قد تنيح، قال: "طوباك يا أنبا أرسانيوس لأنك بكيت على نفسك في هذا العالم...".

"لأن الذي لا يبكي على نفسه في هذا العالم، لا بد سيبكي إلى الأبد في العالم الآخر. أما بكاؤه ههنا فباختياره. ولكن هناك فبسبب ما يناله من عقاب".

"ولكن من المحال أن يفلت إنسان من البكاء هنا وهناك".

صدق داود النبي الذي اختبر الدموع جيدًا في حياته فقال:
"الَّذِينَ يَزْرَعُونَ بِالْدُّمُوعِ يَحْصُدُونَ بِالْإِبْتِهَاجِ" (مز ١٢٦ : ٥).

٣- من أشهر الأمثلة أيضًا في الدموع القديس إيسيدورس قس القلائي.
وكان تحت إشرافه ثلاثة آلاف راهبًا. وكان يرى رؤى. وكانت الشياطين
تخافه وتهرب منه، وبسهولة كان يُخرج الشياطين...

وفي إحدى المرات ظهر له الشيطان وقال له: "أما يكفيك أننا لا نستطيع
أن نمر على قلايتك، ولا على القلاية التي إلى جوار قلايتك. وأخ واحد كان
لنا في البرية، جعلته يعتدي علينا بصلاته في النهار والليل..."

ومع ذلك كان القديس إيسيدورس يبكي بدموع غزيرة.

وكان يجهد بالبكاء بصوت عالٍ، لدرجة أن تلميذه في الغرفة المجاورة
سمعه يبكي، فدخل عليه وقال له: "لماذا تبكي يا أبي؟" فأجابه القديس: "إنني
يا ابني أبكي على خطاياي..." فقال له التلميذ: "حتى أنت يا أبانا، لك خطايا
تبكي عليها؟!" فأجابه:

"صدقني يا ابني، لو كشف الله لي كل خطاياي ما كان يكفي لو اجتمع
ثلاثة أو أربعة معي للبكاء عليها!"

هؤلاء القديسون كانت لهم حساسية شديدة من جهة أن الخطية خاطئة
جدًا، وأنها تجرح قلب الله المحب.

ما كانوا يفكرون في عقوبة الخطية، إنما كانوا يفكرون في مشاعر الله،

وأَنهم لم يرضوه بعد، على الرغم من السمو العظيم الذي وصلوا إليه في الحياة الروحية. ويرون أن هذا (التقصير) إذا ما قيس بالكمال الذي يتطلعون إليه، هو الخطية التي سيكون عليها بدموع...

٤ - ومن القديسين الذين بكوا بدموعهم القديس باخوميوس أب الشركة. حتى أن تلاميذه - بعد صلاته - وجدوا الأرض التي كان واقفاً عليها مبللة بالدموع.

٥ - وكان القديس مقاريوس الكبير مشهوراً أيضاً بالدموع. ولما قربت أيام انتقاله، سأله الآباء أن يأتي إليهم ليتباركوا منه قبل رحيله، بدلاً من أن ينتقل كل سكان الجبل إليه. فلما جاءهم، تجمعوا حوله، وطلبوا منه كلمة منفعة فبكى القديس وقال لهم: "فلنبك يا إخوتي، ولتفض عيوننا بالدموع، قبل أن نذهب إلى المكان الذي فيه تحرق دموعنا أجسادنا..."

فبكوا كلهم وسقطوا على وجوههم قائلين: "صلِّ عنا أيها الأب..."

٦ - ومن الذين اشتهروا بالدموع: القديس بفتنيوس تلميذ وخليفة القديس مكاريوس الكبير:

وكان منذ شبابه المبكر ناميًا في حياة القداسة، وكان كل الآباء معجبين به ويحبونه، حتى أنه أصبح رئيس الإسقيط بعد القديس مقاريوس.

حكي هذا القديس لأولاده فقال:

"حينما كنت صبيًا، وجدت خيارة وقعت على الأرض من الجمالين، فأخذتها وأكلتها. وكلما تذكرت هذه القصة أبكي..."

حدث هذا وهو صغير، وترهب، ونما في النعمة، وصار رئيسًا للإسقيط، وكان يُخرج الشياطين، وكان البابا ثاوفيلس يشتهي سماع كلمة منفعة من فمه... ومع ذلك كلما يذكر تلك القصة يبكي...

ليس البكاء هنا لكي يغفر له الرب خطية. فإن داود النبي قد بكى بعد أن غفر له الرب خطيته.

بعد أن قال له ناثان النبي: "الرَّبُّ أَيْضًا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيئَتَكَ. لَا تَمُوتُ" (٢صم ١٢: ١٣).

إن الإنسان الحساس لا يبكي فقط من أجل طلب المغفرة. إنما يبكي حزنًا على نفسه كيف وصل إلى مستوى السقوط، وكيف أحزن الروح القدس الساكن فيه، وبكل جرأة كسر وصايا الله المحب، الذي خلقه على صورته ومثاله، ففقد هذه الصورة بخطاياها.

سئل أحد القديسين عن الأمور التي يمكنها أن تبكيه.

فقال تفزعني ثلاثة أمور:

١- ساعة خروج روحي من جسدي.

٢- ساعة وقوفي أمام الديان العادل.

٣- ولحظة صدور الحكم عليّ.

هذه الأمور الثلاثة كانت باستمرار تشغل بال القديسين، وتكون مصدرًا للدموع بالنسبة لهم.

إنها أمور تتعلق بحرص الإنسان على أبعديته...

وتذكّر الموت إذاً يصاحبه دائماً تذكّر الدينونة.

وتذكّر الدينونة يجلب الدموع، وبخاصة إن كان يصحبه تذكّر الخطايا والبكاء عليها.

ما أصعب أيضاً عبارة "يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ عَمَلِهِ" (مت ١٦ : ٢٧) ...
وما أصعب أيضاً عبارة "وأعمالهم تتبعهم" (رؤ ١٤ : ١٣).

ترى ما هو نوع هذه الأعمال التي تتبعنا؟! وهل تستحق الدموع!؟

ومع تذكّر الدينونة، يتذكّر الإنسان أيضاً عدل الله. ولهذا تضع الكنيسة أمامنا هذه الحقيقة كل يوم في صلاة النوم، حيث يقول المصلي: "هوذا أنا عتيد أن أقف أمام الديان العادل مرعوب ومرتعّد من أجل كثرة ذنوبي...".

وفي تذكّر الدينونة والخطية، نتذكّر قول الرسول:

"مُخِيفٌ هُوَ الْوُقُوعُ فِي يَدَيِ اللَّهِ الْحَيِّ!" (عب ١٠ : ٣١).

إن الخوف أيضاً سبب جوهرى من أسباب الدموع.

ونقصد في مقالنا هذا الخوف لأسباب روحية، وليس الخوف بسبب أمور
عالمية كما يحدث للبعض...

ابك يا أخي ههنا، لكي يمسخ الرب كل دمة من عينيك حينما تلقاه.
ولكنك إن لم تبك ههنا، فما الذي سيمسحه المسيح من عينيك في العالم
الآخر؟!

إن الذي لا يبكي ههنا، تتجبر من عينيه ينابيع دموع اليأس التي لا
يمسحها أحد هي دموع لا تستطيع أن تطفئ النار المحيطة به.

ما أكثر ما قاله الآباء القديسون عن البكاء والدموع.

* سأل أخ القديس الأنبا بيمين قائلاً: "ماذا أفعل من جهة خطاياي؟"
فأجابه:

"إن الذي يريد أن تُمحي خطاياها، يستطيع هذا بالبكاء. لأن البكاء هو
الطريق الذي علمنا إياه الكتاب. والآباء أيضًا كانوا يبكون باستمرار. ولا يوجد
طريق آخر غير هذا".

* سأل الأنبا نوح القديس مقاريوس "قل لي كلمة منقعة". فقال له الشيخ:
"اهرب من الناس". فسأله الأنبا نوح: "ماذا تعني يا أبي بأن أهرب من
الناس؟". فقال له الشيخ: "اجلس في قلايتك وابك على خطاياك".

* وقال الشيخ الروحاني:

"طوبى للذين احترقت خدودهم بدموع محبتك. فإن هذه الدموع تروي الأرض الناطقة التي احترقت بالنار، فتعطي ثمار الروح".
هذه الدموع التي يجب أن يتصف بها كل إنسان في حياته: لها عوامل تقويها، وعوامل تضعفها. فما هي هذه وتلك؟



الفصل الرابع مسببات الدموع

- + الرقة والحساسية.
- + الشعور بتفاهة العالم.
- + تذكر الخطايا.
- + التجارب والضيقات.
- + تذكّار الموت.
- + الفرح والتأثر.
- + الصلاة.
- + الشعور بالعجز.
- + الشعور بالتخلي.
- + الشماتة.

هناك دوافع كثيرة تسبب الدموع، بعضها داخلي، في القلب والفكر والشعور، بل وفي طبع الإنسان ذاته، وبعضها عوامل خارجية تختص بالظروف والملابسات التي تحيط بهذا الباكي. وسنحاول أن نتكلم عن هذه وتلك بقدر الإمكان. ونذكر حاليًا منها:

١ - الرقة والحساسية

الإنسان الرقيق الحساس، دموعه سهلة وقريبة...

أما الشخص القاسي، الشديد القلب، فدموعه عزيزة، ومن الصعب أن يبكي. وإن بكى هذا الشخص في يوم ما، فلا بد أن يكون السبب الخارجي قويًا جدًا وخطيرًا، بحيث لم يستطع طبع هذا الإنسان أن يقاومه...

لذلك نجد أن الدموع عند المرأة قريبة جدًا أكثر مما عند الرجل...

لأن المرأة أكثر رقة من الرجل بطبيعتها. ولكن إذا بكى الرجل، تكون دموعه أكثر عمقًا وأشد تأثيرًا. كذلك إن بكى الطفل أو الصبي، يكون هذا شيئًا طبيعيًا، شيئًا عاديًا في طبعه. أما إذا بكى رجل كبير السن، فإن دموعه تكون أعلى وأوقع، ولها أسباب أشد وأعق، بحيث لم يستطع هذا الكبير أن يضبط نفسه...

الإنسان الرقيق يتأثر بأقل شيء، وتسيل دموعه بسرعة وتلقائية...

وهي دموع طبيعية لا تصنع فيها، لأن مشاعره الحساسة تتأثر بسرعة، سواء بما يخصه أو يخص غيره... وهناك أمور عديدة تهز القلب، بالنسبة

إلى أصحاب المشاعر الرقيقة، بينما لا تؤثر في غيرهم من أصحاب القلوب
الجامدة أو القاسية، أو من الذين لهم قوة السيطرة على مشاعرهم، أو الحرص
على إخفائها...

الدموع والقسوة لا يتفقان...

إلا إذا صدمت القاسي بأسباب أقوى من قسوته، فهزته من الداخل وانهار
أمامها...! تمامًا كما حدث لعيسو، حينما صُدم بضياح البركة منه بحيلة من
أخيه... ولم يحتمل الصدمة فصرخ باكياً (تك ٢٧: ٣٤، ٣٨).

على أن بكاء القاسي شيء مؤقت.

وهو أيضاً شيء غير طبيعي...

أما بكاء الإنسان الرقيق فهو أمر طبيعي، ومتكرر ومحتمل الحدوث في
أي وقت، لسبب داخلي أو خارجي...

لهذا، فإن الذي يحب الدموع، ويرغب في اقتنائها، عليه أن يقتني رقة
الطبع أولاً...

إن لم يكن رقيق الأحاسيس بطبيعته، فعليه أن يقتني هذه الرقة ويبحث عن
أسبابها، ويدرب نفسه عليها...

وطبيعي كلما اقترب الإنسان إلى الله كلما رقت مشاعره... وكلما عاشر
رقيقي الطبع، كلما تعلّم منهم رقتهم... كذلك عليه أن يبتعد عن الأسباب التي
تؤدي إلى شدة الطبع وقساوة القلب، وهي كثيرة.

٢ - الشعور بتفاهة العالم

الذي يعيش في ملاذ العالم وملاهيته، من أين تأتيه موهبة البكاء؟!

بل العالم يشغله ويلهيه...

حينما كان سليمان الحكيم متمتعاً بأبهة الملك وفخامته، ومهما اشتتهه عيناها لم يمنعه عنهما (جا ٢: ١٠). في ذلك الحين ما كان يبكي... ولكنه لما شعر بتفاهة العالم، وبأن كل ما فيه هو باطل الأباطيل وقبض الريح، حينئذ استطاع أن يقول:

"بِكَآبَةِ الْوَجْهِ يُصْلَحُ الْقَلْبُ"...

"الذَّهَابُ إِلَى بَيْتِ النَّوْحِ خَيْرٌ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى بَيْتِ الْوَلِيمَةِ، لِأَنَّ ذَاكَ نِهَآيَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَالْحَيُّ يَضَعُهُ فِي قَلْبِهِ"، "قَلْبُ الْحُكَمَاءِ فِي بَيْتِ النَّوْحِ، وَقَلْبُ الْجُهَّالِ فِي بَيْتِ الْفَرَحِ" (جا ٧: ٢ - ٤).

عندما يدرك الإنسان الأمور على حقيقتها، ويشعر بتفاهة العالم، ولا تُلذ له كل مغرياتة، حينئذ يشعر بفراغ من جهة العالم... وتتغير مشاعره...

يشتاق إلى عالم آخر، وإذ يجد العالم الآخر بعيداً عنه، يبكي اشتياقاً إليه وحنيناً...

يشعر بغربة في هذا العالم الحاضر، وتبكيه مشاعر الغربة... متيقناً أن فرحه الحقيقي ليس هو ههنا. لأنه غريب على الأرض، نزيل مثل جميع آبائه، يتطلع إلى وطن سماوي، إلى المدينة التي لها الأساسات... (عب ١١:

١٦، ١٠).

لذلك صدق حسّ المرتل، حينما دعا هذه الدنيا "وادي البكاء".

وقال عن حياتنا فيها: "عَابِرِينَ فِي وَادِي الْبُكَاءِ" (مز ٨٤: ٦).

كان القديسون يكونون، إذ كانوا يشعرون بغربتهم في العالم، ويشتاقون إلى عالم أفضل، زاهدين في كل ما ههنا. لا تشبعهم أفراح هذه الدنيا، ولا ترضيهم...

حقًا إن الإنسان يدرك الدموع الروحية، حينما يصل إلى حياة التجرد...

وحينما يصل إلى التجرد، أو على الأقل إلى محبة التجرد، حينئذ يبكي على الأيام التي قضاها متعلقًا بتقاهات العالم ومنشغلًا بها، ويقول للرب كما قال القديس أغسطينوس: "لقد تأخرت كثيرًا في حبك، أيها الجمال الفائق الوصف"...

وهنا يتذكر خطاياه، ويصير تذكرها ينبوعًا لدموع كثيرة...

٣- تذكر الخطايا

إن بطرس الرسول لم يكن يدرك تمامًا حقيقة ما يفعل، وهو يسب ويجدف وينكر المسيح...! ولكنه لما صاح الديك وأحسَّ بعمق خطيئته، "خَرَجَ إِلَى خَارِجٍ وَبَكَى بُكَاءً مُزًّا" (مت ٢٦: ٧٥).

وهكذا أيضًا فعلت المرأة الخاطئة، التي بلّت قدمي الرب بدموعها، ومسحتهما بشعر رأسها (لو ٧: ٣٨). وبالمثل بكى داود النبي، لما أظهر له ناثان النبي عمق خطاياه (٢ صم ١٢: ٧).

إن نسيان الخطايا يجفف القلب ويجفف العينين. لذلك حسنًا قال داود النبي:

"خَطِيئَتِي أَمَامِي فِي كُلِّ حِينٍ" (مز ٥٠: ٣). فليتك تفعل هذا، وتجعل خطاياك قدام عينيك، تذلل بها نفسك وتوبخها، وتبكي على هذه الخطايا النهار والليل. فإن البكاء على الخطايا يغسل القلب، ويطهر الروح، ويعطي يقظة للضمير، فيمنع الإنسان من العودة إلى الخطيئة مرة أخرى، ويعلمه الحرص والتدقيق.

ولهذا فإن نصيحة تتكرر في بستان الرهبان، يقولها الآباء لمن يطلب كلمة منفعة:

"اجلس في قلايتك، وابك على خطاياك".

وغفران الله للخطية، لا يمنع بكاء الخاطئ عليها. إنه لا يبكي خوفًا من

العقوبة... إنما يبكي لأنه أحزن قلب الله بخطاياه، أحزن روح الله الذي في داخله، وأبعد عنه الملائكة المحيطين به، وكشف نفسه رديئة أمام أرواح المنتقلين... ويبكي أيضًا لأنه بخطيئته قد فقد صورته الإلهية، وسقط وتدنس...

يبكي متألماً، كيف ضعفت إرادته هكذا، وتدنست روحه؟!

ويشعر بالخجل أمام نفسه، وبالخزي أيضًا. كما قال داود النبي في المزمور: "خِزْيٌ وَجْهِي قَدْ غَطَّانِي" (مز ٤٤: ١٥). وكما قال دانيال النبي وهو يعترف بخطايا الشعب: "يَا سَيِّدُ، لَنَا خِزْيُ الْوُجُوهِ، لِمُلُوكِنَا، لِرُؤُسَائِنَا وَلِأَبَائِنَا لِأَنَّنَا أَخْطَأْنَا إِلَيْكَ" (دا ٩: ٨).

وهكذا كان القديسون يكونون أيضًا من أجل خطايا الشعب.

يكون حزنًا على الذين يسقطون والذين يهلكون، كما ناح صموئيل على شاؤل الملك (١ صم ١٥: ٣٥). ويكون طالبين المغفرة للناس، وطالبين لهم نعمة للتوبة، كما بكى عزرا الكاهن بسبب خطايا الشعب، ومزق ثيابه وبتف شعرة رأسه (عز ٩: ٣). وصلى واعترف وهو باكٍ وساقط أمام بيت الله (عز ١٠: ١). وقال: "اللَّهُمَّ، إِنِّي أَخْجَلُ وَأَخْزَى مِنْ أَنْ أَرْفَعَ يَا إِلَهِي وَجْهِي نَحْوَكْ، لِأَنَّ ذُنُوبَنَا قَدْ كَثُرَتْ فَوْقَ رُؤُوسِنَا، وَأَنَامْنَا تَعَاظَمَتْ إِلَى السَّمَاءِ" (عز ٩: ٦).

ونفس الوضع حدث مع نحميا، حينما اعترف بخطايا الشعب وقال: "إِنِّي أَنَا وَبَيْتُ أَبِي قَدْ أَخْطَأْنَا. وَأَفْسَدْنَا أَمَامَكَ" (نح ١: ٦، ٧).

ومن أجل الشعب أيضًا بكى إرميا النبي:

وتسجلت دموعه ومراثيه في سفر كامل في الكتاب نقرؤه باستمرار في الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة العظيمة...

إن كان الناس لا يبكون على خطاياهم، فمن واجب القديسين أن يبكوا من أجلهم، طالبين لهم الرحمة والمغفرة، وطالبين لهم التوبة...

لقد بكى السيد المسيح على أورشليم (لو ١٩ : ٤١)، إذ كان يبصر هلاكها أمام عينيه... ونحن في كل يوم نبصر الذين يسقطون ويهلكون، والذين ينحرفون ويبعدون. أفلا يستحقون منا البكاء؟! إن نحميا، لما سمع أن سور أورشليم منهدم، وأبوابها محروقة بالنار، يقول: "لَمَّا سَمِعْتُ هَذَا الْكَلَامَ جَلَسْتُ وَبَكَيْتُ وَنُحْتُ أَيَّامًا، وَصُمْتُ وَصَلَّيْتُ..." (نح ١ : ٤). وبكى نحميا أمام الله، معترفًا بخطايا الشعب... وقال للرب في صلاته: "إِنِّي أَنَا وَبَيْتُ أَبِي قَدْ أَخْطَأْنَا. لَقَدْ أَفْسَدْنَا أَمَامَكَ، وَلَمْ نَحْفَظِ الْوَصَايَا وَالْفَرَائِضَ وَالْأَحْكَامَ الَّتِي أَمَرْتَ بِهَا مُوسَى عَبْدُكَ..."

والسيد المسيح لما بكى عليه بنات أورشليم، قال لهن: "لَا تَبْكِينَ عَلَيَّ بَلْ ابْكِينَ عَلَى أَنْفُسِكُنَّ وَعَلَى أَوْلَادِكُنَّ" (لو ٢٣ : ٢٨) ... حقًا، كانت تلك النفوس تحتاج إلى البكاء، تلك النفوس الخاطئة التي بكى المسيح من أجلها...

حينما نبكي على خطايانا، نتذكر أيضًا محبة الله التي صبرت علينا كل هذا الزمان!

نتذكر احتمال الله لنا، وطول أناته، ونحن مستمرون في الخطأ زمانًا هذه

مدته... وتذكرنا لمحبة الله الصابرة والمحتملة، تعطينا سبباً جديداً للبكاء تأثراً بمعاملته المترفقة...

وحينما تبكي النفس التائبة أمامه، يشفق الرب، ويُغلب من تحننه، ويقول لتلك النفس "حَوْلِي عَنِّي عَيْنَيْكَ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِي" (نش ٦: ٥).

إن داود النبي من أبرز الأمثلة للبكاء على الخطايا.

يكفي قوله: "أَعُوْمْ كُلَّ لَيْلَةٍ سَرِيرِي، وَبُذْمُوعِي أَبْلُ فِرَاشِي" (مز ٦: ٦). عبارة "كل ليلة" تعبر عن الوقت واستمرار البكاء. وعبارة "أعووم سريرتي" تدل على كمية الدموع المنسكبة...! تصوروا هذا الملك العظيم، يرجع إلى قصره ليلاً، فيخلع عنه تاجه وملابسه الملكية، ويركع أمام الله باكياً، ليبلل فراشه بالدموع. وحتى إذا نام، ينام على سرير غارق في الدموع... على الرغم من كل مظاهر العظمة والأبهة المحيطة. ويقول أيضاً:

"صارت دموعي لي خبزاً نهاراً وليلاً" (مز ٤٢: ٣).

وأيضاً يقول في تذكُّه وبكائه: "أَكَلْتُ الرَّمَادَ مِثْلَ الْخُبْزِ، وَمَزَجْتُ شَرَابِي بِدُمُوعٍ" (مز ١٠٢: ٩) ... أي أنه حينما يشرب، تتساقط دموعه فتختلط بالماء الذي يشربه، فيشربها معه!

وكان داود يحدث الله عن هذه الدموع، فيقول له: "اصْغَ إِلَيَّ صُرَاخِي. لَا تَسْكُتْ عَنْ دُمُوعِي. لِأَيِّي أَنَا غَرِيبٌ عِنْدَكَ" (مز ٣٩: ١٢)، "اجْعَلْ أَنْتَ دُمُوعِي فِي زَقِّكَ" (مز ٥٦: ٨).

إن الذين يسرعون إلى الفرح حال توبتهم، يفقدون بركة الانسحاق

وتعزية الدموع.

وقد يرجعون إلى الخطية مرة أخرى، لأن التوبة لم تستوف مطالبها من الانسحاق ومن البكاء، وهذا الفرح السريع عطل القلب عن الشعور بمرارة الخطية وفداحتها، فعبّر عليها كما لو كانت أمرًا بسيطاً...

حينما يبدأ التائب في البكاء والتذلل أمام الله، يحاربه الشيطان بعبارة: "امْنَحْنِي بِهَجَّةً خَلَاصِكَ" (مز ٥٠ : ١٢).

والملاحظ أن داود النبي قدمها كطلبية، ولم يعرفها كحالة... ولا شك أنه لا يتمتع بهجة الخلاص إلا الذي أدرك مرارة الخطية، وبكى بكاءً مُرًّا كما فعل القديس بطرس الرسول...

لقد كان خروف الفصح يمثل الخلاص من عبودية فرعون، ويرمز إلى ذبيحة المسيح (١كو ٥ : ٧). ومع ذلك كان أمر الرب أن يأكلوه على أعشاب مرة (خر ١٢ : ٨) متذكّرين خطاياهم التي جلبت لهم العبودية. البكاء إذاً هو الوسيلة إلى التعزية، كما قال الكتاب:

"الَّذِينَ يَزْرَعُونَ بِالْدُمُوعِ يَحْصُدُونَ بِالْإِبْتِهَاجِ" (مز ١٢٦ : ٥).

بهذه الدموع التي تسكبها أمام الله تحصل على بهجة خلاصه.

٤ - التجارب والضيقات

التجارب والضيقات والآلام والأمراض والكوارث تجلب الدموع أحياناً. وبخاصة لو شعر الإنسان بالتخلي أو أنها عقوبة بسبب خطايا.

وهنا يدخل في البكاء عامل روحي، سببه شعور الإنسان أن النعمة قد فارقت، أو أن الله بدأ يسلمه إلى أيدي أعدائه... فيحزن لذلك ويبكي.
فأحياناً يبكي توبة وندماً.
وأحياناً يبكي في عتاب مع الله.

ولعل هذا ما فعله داود في تجاربه وضيقاته، حينما قال في المزمور:
"يَا رَبُّ، لِمَاذَا تَقَفُّ بَعِيدًا؟ لِمَاذَا تَخْتَفِي فِي أَرْمَنَةِ الصَّيْقِ؟" (مز ١٠: ١).
والرب يسمح أحياناً بالتجارب، لا تخلياً منه، وإنما لفائدتها الروحية.
لأن الإنسان في وقت المذلة تجلب له انسحاق القلب، وتواضع الروح،
وفيضاً من الدموع يشعره بضغفه، ويزيل منه كل أسباب ومظاهر الكبرياء.
وقد يرى الله أن دموع أحد أبنائه قد جفت بلذة العالم...

فيسمح له بالتجارب والضيقات، لكي تعصر عينيه بعد أن تعصر قلبه...
والله لا يمنع هذه التجارب حتى عن قديسيه. وفي هذا يقول المزمور:
"كَثِيرَةٌ هِيَ أَحْزَانُ (بلايا) الصِّدِّيقِينَ وَمِنْ جَمِيعِهَا يُنْجِيهِمُ الرَّبُّ" (مز ٣٤: ١٩).
إنه يسمح بهذه البلايا أن تصيب قديسيه. فإن أنت بنتائجها الروحية، حينئذ
ينجيهم منها.

وهنا أحب أن أفرق بين نوعين من التجارب ونوعين من الدموع...
نوع علماني والآخر روحي.

هناك تجارب مادية أو عالمية، تصيب الإنسان، في ماله أو جاهه، أو

مركزه، فيبكي حزناً على لذة ضائعة من ملاذ هذه الدنيا... وربما في بكائه يتذمر، ويتضجر، حتى على الله نفسه!! كأن الله كان سبباً في بلاياه!

مثل هذا الإنسان دموعه خطية.

ولسنا عن هذا النوع نتحدث.

إن دموعه تدل على محبته للعالم والأشياء التي في العالم، التي تبید وشهوتها معه (١٧٠: ١٥، ١٧).

والإنسان الزاهد في الدنيا وملاذها، لا يتأثر بهذه الأمور، بل يقول: "الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ، فَلْيَكُنِ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَكًا" (أي ١: ٢١).

وإنسان آخر كلما تضغط عليه التجارب، يشعر بتفاهة الدنيا، ويشتاق إلى عالم أفضل، هذا إنسان روحي.

إن بكى، يبكي خوفاً من تخلي النعمة عنه. أو إنه يكون قد أحزن الرب، فتركه إلى هموم العالم.

هذا الإنسان بكائه روحي ممزوج بالتوبة وتواضع القلب، وممزوج بالاعتراف أيضاً. وقد يقول في قلبه: إن ما حدث لي، أقل بكثير مما أستحقه بسبب خطاياي. وخير لي أن أستوفي البلاء على الأرض كلعازر المسكين (لو ١٦: ٢٥).

أو يقول مع المرتل في المزمور:

"خَيْرٌ لِي أَنْتَ أَذِلَّلْتَنِي حَتَّى أَتَعَلَّمَ حُقُوقَكَ" (مز ١١٩: ٧١).

إن مثل هذه الدموع تجلب للقلب عزاء، لأن الله يكون قد قبلها كرائحة

سرور قدامه، وقبل دوافعها الروحية أيضًا...

وقد تكون التجارب من ضغط حروب الشياطين، ويبكي الإنسان شاعرًا
بضعفه، طالبًا من الرب معونة.

فشعور الإنسان بأنه أضعف من أن يقاتل هذه القوى الروحية، قد يجلب له
دموعًا، خوفًا من أن يسقط....

أو أن أفكار العدو تكون قد نجست إنسان الله، فيبكي حرصًا على نقاوة
قلبه وفكره وشعوره، ويجاهد طالبًا نعمة الله معه.

وعن هذه الحرب الروحية، أرسل بولس الرسول موبخًا العبرانيين بقوله:

"لَمْ تَقَاوِمُوا بَعْدُ حَتَّى الدَّمِ مُجَاهِدِينَ ضِدَّ الْخَطِيئَةِ" (عب ١٢ : ٤).

هذا الجهاد حتى الدم، تدخل الدموع عنصرًا فيه. حيث يخاطب الرب قائلًا:

"انصت إلى دموعي" (مز ١١٩) ولا تتخلّ عني، لأنني بدونك لا أستطيع أن
أفعل شيئًا (يو ١٥ : ٥).

هناك سبب آخر للدموع وهو:

٥ - تذكّار الموت

المنشغل بالحياة الحاضرة لا يبكي.

بل قد يقول مثل الغني الغني: "أَهْدِمُ مَخَازِنِي وَأَبْنِي أَعْظَمَ، وَأَجْمَعُ هُنَاكَ

جَمِيعَ غَلَاتِي وَخَيْرَاتِي، وَأَقُولُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ لَكَ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ، مَوْضُوعَةٌ

لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ. اسْتَرِيحِي وَكُلِّي وَاشْرَبِي وَافْرَحِي!" (لو ١٢ : ١٨ ، ١٩)

إن متع الدنيا تلهيه عن أبعديته، فلا يبكي، بل يفرح ويتمتع!!

أما الإنسان الروحي، فإن يضع أبعديته أمامه في كل حين، ويدرك أن يوم الرب قد يأتي كلص (رؤ ١٦ : ١٥)، تراه يستعد لهذه الأبدية، وما تستلزمه من حياة التوبة والجهاد والكمال المطلوب والقداسة...

وإن يذكر الموت يبكي... لأنه ليس مستعداً له...

ولا يزال أمامه جهاد طويل، لم يسر فيه خطوة واحدة...

إن أرسانيوس العظيم، رجل الوحدة والصمت والصلاة، كان يبكي لتذكّر الموت...

إن كان الإنسان الروحي يبكي لتذكّر الموت بصفة عامة...

فكم يكون بكاءه إن كان الموت متوقعاً لسبب واضح يوحى به؟!

إن البكاء وحده ليس هو كل شيء. وليس هو بسبب مفارقة الأهل والأحباب، أو مفارقة ملاذ الدنيا، كما يفعل أهل العالم ومحبه!

إنما هو بكاء مصحوب باستعداد روحي، استعداد لمقابلة الله.

وهكذا كان القديسون ينصحون بتذكّر الموت، وبزيارة المقابر.

إن القديس الأنبا أنطونيوس تأثر روحياً بوفاة أبيه بالجسد، وزهد الدنيا وخرج منها بإرادته، قبل أن يخرجوه كارهاً.

وموكب موت شاهده الأنبا بولا ترك تأثيره أيضاً، فترك العالم والمال والقضايا، وصار أول السّواح.

وكان القديس أبا مقار الكبير يضع أحياناً جمجمة تحت رأسه تذكره بالموت. وأبا مقار الإسكندراني زار إحدى المقابر. والقديس أنطونيوس الكبير في بدء حياته الرهبانية سكن في مقبرة...

تذكّار الموت له فوائده العديدة، الدموع واحدة منها...

تذكّار الموت يوقف الإنسان أمام حقيقة نفسه، وأنه مجرد بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل (يع ٤: ١٤)، وأنه "كَزَهَرَ الْحَقْلُ كَذَلِكَ يُزْهَرُ. لَأَنَّ رِيحًا تَعْبُرُ عَلَيْهِ فَلَا يَكُونُ، وَلَا يَعْرِفُهُ مَوْضِعُهُ بَعْدُ" (مز ١٠٣: ١٥، ١٦).

ولذلك حسناً قال داود النبي:

"عَرَفْنِي يَا رَبُّ نِهَائِيَّتِي وَمِقْدَارَ أَيَّامِي كَمْ هِيَ، فَأَعْلَمَ كَيْفَ أَنَا زَائِلٌ" (مز ٣٩: ٤).

وقال أيضاً: "إِنَّمَا نَفْحَةٌ كُلُّ إِنْسَانٍ قَدْ جُعِلَ. إِنَّمَا كَخَيَالٍ يَتَمَشَّى الْإِنْسَانُ" (مز ٣٩: ٥، ٦).

بتذكّار الموت، يتضع الإنسان وينسحق.

والاتضاع والانسحاق يجلبان الدموع.

٦ - الفرح والتأثر

كما أن الحزن الشديد يجلب الدموع، كذلك يسببها الفرح العميق أيضاً.

إن يوسف الصديق وأباه يعقوب لم يضبطا أنفسهما من البكاء الشديد عند لقائهما بعد غيبة طويلة.

التأثر الشديد داخل القلب، فاض دمعاً. ويقول الكتاب إن يوسف لما رأى أباه "وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا" (تك ٤٦ : ٢٩).

ونفس التأثر والبكاء، حينما عرّف يوسف إخوته بنفسه.

وإن كانت المشاعر وقتذاك تختلف عن مشاعره حين لقائه بأبيه.

ويقول الكتاب في ذلك: "لَمْ يَسْتَطِعْ يُوسُفُ أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ... فَصَرَخَ: أَخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي. لَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عِنْدَهُ حِينَ عَرَّفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ بِنَفْسِهِ. فَأُطْلِقَ صَوْتُهُ بِالْبُكَاءِ... وَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: أَنَا يُوسُفُ. أَحْيِ أَبِي بَعْدُ؟" (تك ٤٥ : ١ - ٣).

ونفس التأثر نراه حينما قابل يعقوب في غربته، راحيل ابنة خاله.

كانت مصادفة مفرحة ما كان يتوقعها. فلما رآها، وسقى لها غنمها، يقول الكتاب: "وَقَبَّلَ يَعْقُوبُ رَاحِيلَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ وَبَكَى. وَأَخْبَرَ يَعْقُوبُ رَاحِيلَ أَنَّهُ أَخُو أَبِيهَا، وَأَنَّهُ ابْنُ رِفْقَةَ" (تك ٢٩ : ١١ ، ١٢).

إن دموع الفرح باب طويل...

دموع الفرح بالنجاح والتوفيق.

دموع الفرح باللقاء بعد غيبة.

دموع الفرح بعمل الله معنا، في أي إنقاذ من ضيقة. وفي حل أي إشكال

معقد...

دموع الفرح بالنجاة، وبالفرج...

ما أكثر دموع القديسين فرحاً...

وليس كلها بكاء على الخطايا.

وهنا نذكر مجالاً آخر للدموع، أو سبباً لها وهو الصلاة.

٧- الصلاة

يبكي الإنسان في صلاته، إذا كانت صلاته من عمق مشاعره وعواطفه.

قد يبكي خشوعاً، وهو يشعر بعدم استحقاقه للوجود في حضرة الله.

وقد يبكي أمام المذبح أو الهيكل، وهو شاعر بهيبة المكان... أو أثناء

التناول أيضاً للشعور بنفس الهيبة.

وقد يبكي حباً لله، الذي قبله إليه، ولم يصنع معه حسب خطاياهم

وضعفاته.

وقد يبكي تأثراً ببعض كلمات وردت في الصلاة هزت مشاعره. كما يبكي

بعض الآباء الكهنة وهم يصلون قسمة ذبح إسحاق في يوم خميس العهد.

وقد يبكي خجلاً، لأنه لم يفِ بوعوده التي عاهد الرب بها.

وقد يبكي حزناً على ضعفه وتقصيره، وعلى مرات سقوطه، كما نقول في

صلاة نصف الليل... "أعطني يا رب يناابيع دموع كثيرة، كما أعطيت في

القديم للمرأة الخاطئة...".

وقد تكون دموعه في صلاته هي دموع التوبة، لأنه استطاع أن يعود إلى

الله أخيراً بعد غيبة طويلة، أو بعد غيبة عميقة.

إنها مشاعر تختلف من شخص لآخر، يتأثر بها القلب فتدمع العينان.

هناك سبب آخر يدعو إلى البكاء وهو:

٨- الشعور بالعجز

الذي يشعر بقوته وقدرته وسيطرته على المواقف، ربما من الصعب أن يبكي وهو في هذا الشعور.

لكن يبكي الذي يشعر في أعماقه بأنه عاجز، أو غير قادر على التصرف السليم، أو حائر أمام إشكال.

حينئذ يبكي، إذ ليس أمامه سوى البكاء. وقد يصلي في بكائه طالبًا حلًا ومعونة من القادر على كل شيء.

هكذا قد نبكي أمام مريض عجز الأطباء عن علاجه، أو أمام كارثة لا منقذ منها، أو مأساة قادمة ولا مفر من مواجهتها، ولا يمكن تفاديها.

ويزداد الألم والبكاء، إن كان هذا الإنسان عاجزًا، وكل من حوله عاجز مثله، في ذلك الموقف.

أو قد يبكي الإنسان بسبب خطية أو شهوة أو عادة سيطرت عليه، ويريد أن يتخلص منها، ولكنه شاعر بعجزه أمامها.

أو بسبب عدو يضغط عليه، ويذل في الأرض نفسه، وهو عاجز تمامًا عن مقاومته ويبدو أنه لا خلاص...

هذا الشعور بالعجز، إن اختلط بصلاة وعاطفة، فلا مفر من الدموع. نتحدث عن سبب آخر وهو:

٩- الشعور بالتخلي

سواء وقف الإنسان وحده، وتخلي عنه كل الأصدقاء والأحباء . أو بالأكثر الإحساس بتخلي النعمة عنه.

شعور القلب بأن الله قد تركه، حتى لو كان شعورًا خاطئًا، ولكنه موجود، يضغط على نفسه فيتألم ويبكي...

وبخاصة لو حدث هذا الإحساس بالتخلي وسط ظروف ضاغطة ومشاكل مؤلمة.

أو لو حدث التخلي في سقطات روحية، ظن الإنسان أنه لا قيام منها. أو أحاطت بالإنسان الكوارث أو ألوان من الفشل المتلاحق. وشعر أن كل هذا بسبب تخلي الله عنه، بسبب خطاياه. وفي وسط كل هذا يبرز سبب آخر للدموع هو:

١٠- الشماتة

وكما قال الشاعر:

كل المصائب قد تمر على الفتى .. فتتهون غير شماتة الأعداء
إن الشماتة سبب لألم عميق، سواء من أعداء، أو من معزين متعبين كأصدقاء أيوب (أي ١٦: ٢).

وقد شك داود النبي كثيرًا من هذه الشماتة في مزاميره.

فقال: "... إلهي عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. فَلَا تُخْزِنِي إِلَى الْأَبَدِ. وَلَا تُشْمِتْ بِي
أَعْدَائِي" (مز ٢٥: ٢). وصرخ في مزبور آخر قائلاً: "حَتَّى مَتَى الْخُطَاةُ يَا
رَبُّ، حَتَّى مَتَى الْخُطَاةُ يَشْمَتُونَ؟" (مز ٩٤: ٣).

ونرى أن ميخا النبي يجتذب نفسيته خارج شماتة الأعداء هذه التي تحزن
القلب، فيقول: "لَا تَشْمِتْ بِي يَا عَدُوَّتِي، إِذَا سَقَطْتُ أَقُومُ" (مي ٧: ٨).
إن استمرت الشماتة تدمي القلب، وبالتالي تدمع العينين، إلا للذين
ارتفعوا تماماً عن كلام الناس.

حتى القديسون كانت الشماتة الروحية تتعبهم، وبخاصة ممن يقولون
"أين هو الرب إلههم"!!...

الفصل الخامس معوقات الدموع

- + قسوة القلب.
- + إدانة الآخرين.
- + العنف.
- + الغضب والحقْد.
- + الحياة في الخطية.
- + اللذة والرَّفاهية.
- + التذمر.
- + الفخر والكبرياء.
- + التهاون والفتور.

قسوة القلب

القلب الرقيق الطيب دموعه قريبة.

أما القلب القاسي فتبتعد عنه الدموع.

من السهل أن يبكي بطرس بكاءً مرّاً. ولكن من الصعب أن يبكي فرعون
أو أن يبكي هيرودس.

كذلك فإن الشدة والحزم، قد تمنعان الدموع أيضاً.

لأن الإنسان يستخدم في ذلك الوقت القوة لا الرقة.

ويستثنى من هذا حالة الحزم النابعة من قلب مملوء من الحب، كما قيل
عن السيد في تطهير الهيكل:

يا قوياً ممسكاً بالسوط في ... كفه والحب يدمي مدمعك

وفي حديثنا عن القوة والرقة نقول:

إن الدموع عند المرأة أسهل وأكثر مما عند الرجل. ولكن إن بكى الرجل،
تكون دموعه أعمق...

ذلك لأن شدته أو قوته لم تستطع أن تقاوم المشاعر الجياشة. فلا بد أن
سبب الدموع كان أقوى والانفعال بها كان أشد...

إن الدموع والقسوة لا يتفقان معاً.

فإن كنت تطلب الدموع، ابعد عن قساوة القلب بقدر ما تستطيع، وعن

مظاهر هذه القسوة. كيف ذلك؟

نضرب لك الآن بعض أمثلة:

إدانة الآخرين

وبالذات القسوة والشدة في الحكم على الناس... هناك أشخاص عنفاء جدًا في أحكامهم. إذا انتقدوا إنسانًا، ينتقدونه بشدة وبقسوة، وبقلب خالٍ من الحب ومن العطف، وخالٍ من تقدير ظروف الآخرين...

الإنسان الذي في هذه الحالة، لا يمكن أن تسيل دموعه، إلا إذا تخلص من هذه المشاعر!

الحديث عن أخطاء الناس، أو التشهير بهم، سبب من الأسباب الرئيسية التي تمنع الدموع. وفي نفس الوقت فإن هذا التشهير سبب من الأسباب التي تقسي القلب، وتبعده عن الرقة التي يتصف بها أولاد الله...

إدانة الآخرين ليست فقط قسوة وعنفاً. وإنما فيها أيضًا ينسى الإنسان خطاياه الخاصة.

والذي ينسى خطاياه، يبعد عن أهم مصدر للدموع... أما الإنسان الروحي، فإنه يشفق على الخطاة، متذكرًا قوة العدو وحروبه، وضعف الطبيعة البشرية، ومتذكرًا أيضًا خطاياه وسقطاته. فيبكي على الساقطين كما يبكي على نفسه... وفي ذلك قال القديس بولس الرسول: "أَذْكُرُوا الْمُقَيِّدِينَ كَأَنَّكُمْ مُقَيَّدُونَ مَعَهُمْ، وَالْمُذَلِّينَ كَأَنَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا فِي الْجَسَدِ" (عب ١٣: ٣).

رجل الدموع يمكن أن تكون عنده هذه المشاعر. ومن عنده هذه
المشاعر يمكن أن يقتني الدموع.

وهكذا كان القديس يوحنا القصير... حينما كان يرى إنسانًا يخطئ، كان
يبكي ويقول: هذا الإنسان سقط اليوم. وقد أسقط أنا مثله غداً. وربما يخطئ
هو يتوب ويخلص، بينما أخطئ أنا ولا أتوب...

وهكذا كانت خطايا الناس تدفعه إلى البكاء، ولا تدفعه إلى الإدانة.
والقديس موسى أيضاً كان باستمرار يتذكر خطايه، لا خطايا الناس...
وهناك قاعدة روحية تقول: إن الإنسان يسقط عادة في الخطايا التي يدين
الناس عليها...

والله يسمح بهذا، لكي يخزي كبرياء الذين يدينون غيرهم. لكي نعرف أننا
إذا سرنا حسناً، فليس هذا لقوة فينا، إنما بسبب معونة تأتينا من فوق.

فإن أدناً غيرنا بقساوة قلب، تتخلى عنا النعمة الحافظة، فنسقط مثلهم...
وحينما نسقط، ونبكي على خطايانا، شاعرين بضغفنا، وبأن الخطية
"طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرَحَى، وَكُلُّ قَتْلَاهَا أَقْوِيَاءُ" (أم ٧: ٢٦). حينئذ ترق قلوبنا،
ونشفق على غيرنا، ولا ندين الساقطين، بل نبكي من أجلهم... شاعرين بأن
الشیطان نشيط، ونشاطه يدعونا إلى الخوف والحرص والبكاء، وطلب معونة.

مثلما نسمع أن أسداً في الطريق قد افترس إنساناً....

لا ندين هذا الإنسان، بل نبكي عليه، ونبكي على أنفسنا من خطر هذا
الأسد المفترس، الذي شبّه به الرسول عدونا الشيطان الذي يجول ملتصقاً من

يبتلعه (بطه: ٨).

أو مثلما نسمع عن وباء أصاب آخرين فماتوا... هل نبكي عليهم أم ندينهم...؟!

هكذا الخطية، وهكذا الشيطان، وهكذا حال الذين يسقطون، والذين يدينوهم...

الإدانة إذاً هي قسوة، ونسيان لقوة العدو، ونسيان للضعف البشري. وكلها أمور تبعد الدموع... وبنفس الوضع نتحدث عن الإدانة المستترة.

ونقصد بالإدانة المستترة التي تختفي وراء النصح أو التوبيخ أو الإنذار. ولعلك تسأل: هل معنى هذا أنني لا أنصح أحداً ولا أحذره؟

أقول لك: يمكن أن تفعل هذا، ولكن في محبة، وليس بروح التعالي. وتذكر قول بولس الرسول لرعاة أفسس:

"مُتَذَكِّرِينَ أَنِّي ثَلَاثَ سِنِينَ لَيْلاً وَنَهَارًا، لَمْ أَقْضُرْ عَنْ أَنْ أُنْذِرَ بِدُمُوعٍ كُلِّ وَاحِدٍ" (أع ٢٠: ٣١).

لأنه يندر، ولكن بدموع... بدموع فيها حب ورقة، وخوف عليهم من السقوط، وتقدير للضعف البشري.

تذكر أن الطبيب حينما ينزع جزءاً فاسداً من مريض، إنما يفعل ذلك بحنو دون أن يشمئز من فساد هذا الجزء الذي يقطعه، ودون أن يدين المريض بسبب ذلك.

سبب آخر يمنع الدموع وهو:

العنف

الإنسان العنيف لا يبكي. إنما عنفه يمنع عنه الدموع... أيًا كان هذا العنف ونوعه...

فالقَاتِل لا يبكي. وقد يكون القَتِيل في حالة تذيب القلوب، وقد يتوسل إليه. ولكن قساوة قلبه في العنف، تجفف عينيه...

قد يبكي فيما بعد، حينما يرجع إلى نفسه ويتذكر قسوته... وكذلك المخرب والثائر...

وحتى العنيف في المنافسة أو المناقشة، أو الخصومات، أو النزاع مع الناس أيًا كان نوعه.

الذي يصيح ويعلو صوته في نقاشة مع الآخرين، هذا تهرب منه الدموع. الذي يحل المشاكل بعنف، أو يفرض عقوبات على مرؤوسيه بعنف، أو يستخدم العنف في المعاملات... هذا أيضًا بعيد عن موهبة الدموع. وبالمثل الغضوب:

الغضب والحقد

من المحال أن إنسانًا غضوبًا، تكون له موهبة الدموع. الدموع كما قلت تتمشى مع رقة القلب. والإنسان الغضوب يتصف بالحدة والعنف والقسوة. وهذه كلها ضد الدموع.

من الجائز أن إنساناً غضوباً، يبكي من الغيظ والقهر.

مثلاً بكى عيسو لما اكتشف أن أخاه يعقوب أخذ منه البركة (تك ٢٧:

٣٨).

ولكن هذه ليست من الدموع الروحية التي نتحدث عنها. ومن الجائز أن
دموع الغيظ والقهر توجد في العلاقات العائلية، أو مجالات العمل... إنها
دموع، ولكن ليست من النوع الروحي... ربما يدفع إليها اليأس أو العجز أو
الفشل... أما الدموع الروحية فتصدر من قلب نقي، رقيق، حساس...

الذي يقتني موهبة الدموع، ثم يسلك في الطبع الغضب، يفقد تلك
الموهبة...

ويجد أن دموعه قد جفت، أو فارقت، على الأقل في وقت غضبه... فإن
كان الله قد وهبك دموعاً، ثم فقدتها، ادخل إلى داخل نفسك، وابحث عن
السبب وعالجه. واسأل نفسك: هل كان الغضب من أسباب فقدك للدموع.

الغضوب يركز أثناء ثورته على أخطاء غيره.

أما صاحب موهبة الدموع، فيركز على أخطائه الخاصة.

تركيزه على أخطائه الخاصة يبكيه، متذكراً ضعفه وسقوطه وانفصاله عن
الله... أما التفكير أثناء الغضب في أخطاء الغير، فإنه قد يثير المشاعر
والأعصاب، كما أنه ينسي الإنسان خطاياه. وقت البكاء، وهو وقت مشاعر
وأحاسيس. أما وقت الغضب، فهو وقت أعصاب وثورة وقسوة. وقت البكاء
يسوده الحب، وأما وقت الغضب فتسوده الكراهية...

لذلك لا تلم غيرك، إنما لم نفسك. فلاباء يقولون:

ملامة النفس تمنع الغضب...

وإن غضب الذي يلوم نفسه، فإنما يغضب على نفسه، لا على غيره...

لذلك نقوا أنفسكم من الغضب، إن أردتم أن يهبكم الله موهبة الدموع...

كذلك فإن الحقد أصعب وأقسى من الغضب.

إن كانت إدانة الآخرين تمنع الدموع، والغضب يلاشيها. فمن باب أولى الحقد والكراهية والعداوة، لأنها درجات أكبر من الغضب وأعنف. وتدل على قسوة في القلب، ورفض لغفران إساءة المسيء... وكلها تعكر القلب وتفقده رفته.

من الأسباب الأخرى التي تعوق الدموع: الحياة في الخطية.

الحياة في الخطية

الألم بسبب الخطية، يجلب الدموع ويكون في التوبة.

أما الحياة في الخطية والتلذذ بها، فيمنعان الدموع.

لأنه على أي شيء يبكي الإنسان، إن كان مسرورًا بحياة الخطية التي يعيشها؟! إن البكاء قد يأتي من وخز الضمير الشائر عليه. أما في التمتع بالخطية، فإن الضمير يكون نائمًا أو مخدرًا!! والإنسان تقوده المتعة لا الضمير.

بل الإنسان في الخطية، قد يبكي إن فقد الخطية!!

وتكون دموعه في هذه الحالة خطية... مثلما بكى بنو إسرائيل في البرية، لما لم يجدوا لحمًا يأكلونه (خر ١٦: ٣) ... ومثلما يبكي إنسان مدمن، لا يجد ما اعتاده من المخدرات... أو كما يبكي محب المال، إن فقد أمواله! أو كما يبكي محب اللذة الجسدية، إن أغلقت أبوابها أمامه... أو محب العظمة والسلطة إن فقدها، وأصبح شخصًا عاديًا...!! وكلها دموع عالمية أو مادية، تعتبر خطية تضاف إلى الخطايا السابقة...

فهذه الدموع الخاطئة تدل على محبة عميقة للخطية.

وبالتالي تدل على انفصال القلب عن الله... كما تدل على تعلق القلب بالعالم والماديات. وليست هي نوع الدموع الروحية التي نتحدث عنها. على أنه قد يحيا الإنسان أحيانًا في الخطية، وتوجد له دموع روحية. فكيف ذلك؟ نذكر لهذا مثالًا.

قد يحيا إنسان في الخطية، مقهورًا من عادة مسيطرة عليه. فيبكي إذ يريد من كل قلبه أن يتخلص من الخطية، وإرادته أضعف من أن تساعد! هذا الإنسان تنتشله النعمة، ويعتبر الله بكاءه بداية للتوبة. وينظر إلى قلبه لا إلى عمله، إن كان صادقًا في نيته وفي دموعه... وإن كان يفعل الخطية وهو غير متلذذ بها، إنما وهو مقهور منها... فاللذة أيضًا تفقد الدموع...

اللذة والرفاهية

اللذة بطبيعتها تتناقض مع الدموع.

والذي يعيش في لهو ومتعة ورفاهية، يتمتع بالمال والمادة والسلطة وكل متعة عالمية... هذا الإنسان من أين تأتيه الديموع...؟!

بل إنه يحتاج إلى ديموع الناس عليه،

لكيما يصل إلى حياة الديموع.

الذي يحيا حياة اللذة والمتعة، يكره الديموع، لأنها تعكّن عليه!! وتقطع حبل متعته، وتكون كمنشاز في لحن ملاذه!! مثل هذا، يحب العالم والأشياء التي في العالم. وتخره كل هذه الأشياء، حتى لا يفكر في أبديته!

لذلك أبعد عن حياة اللذة، حينئذ تدرك تفاهتها، فتبكي على الأيام الذي ضيعتها فيها...

وحينئذ تنشد مع سليمان الحكيم "باطل الأباطيل... الْكُلُّ بَاطِلٌ وَقَبْضُ الرِّيحِ، وَلَا مَنَفَعَةَ تَحْتَ الشَّمْسِ" (جا ١: ٢؛ ٢: ١١) ... لقد قال هذه العبارات إنسان مجرب، ذاق كل متع الدنيا، على تعدد أنواعها، وقال في ذلك: "... وَمَهْمَا اسْتَهْتَهُ عَيْنَايَ لَمْ أُمْسِكْهُ عَنْهُمَا" (جا ٢: ١٠). ومع ذلك وجد الكل الباطل، ووجد أنه "بِكَآبَةِ الْوَجْهِ يُصْلَحُ الْقَلْبُ" (جا ٧: ٣).

ينبغي أن تعرف أن حياة اللذة، هي ضدك وليست لك. وهي تنسيك حقيقتك!

الابن الضال حينما كان يعيش في حياة اللذة العالمية، ما كان يدري ما هو فيه. ولكنه وصل إلى التوبة وإلى انسحاق النفس، حينما عاد إلى نفسه، وشعر بسوء حالته. وعندئذ فقط بدأ حياته الحقيقية كابن، وعاد إلى بيت

أبيه...

كذلك نقول: إن الاستغراق في الضحك والمزاح، يمنع الدموع.

حقاً كما قال الحكيم: "لِلْبُكَاءِ وَقْتُ وَلِلضَّحْكِ وَقْتُ" (جا ٣: ٤). ولكن مع ذلك فإن الذين يعيشون في حياة كلها مزاح وضحك، من الصعب أن يصلوا إلى حياة الدموع...

على الأقل في وقت ضحكهم، يكونون بعيدين عن الدموع.

إذاً، إن كانت حياة اللهو والضحك واللذة والمتعة، تمنع الدموع... فإننا نقول من الناحية العكسية: إن التجارب والضيقات والأمراض والآلام هي من مسببات الدموع... ففيها يشعر الإنسان بضعفه، وبثقل النير عليه، فيتجه إلى الله، ويسكب دموعه أمامه...

ولكن على شرط أن يقبل التجارب والضيقات بغير تدمير.

التدمير

إن التدمير سبب من الأسباب التي تمنع الدموع.

فإن الإنسان في تدمره يكون ساخطاً، وشاعراً بأنه لا يستحق كل هذا الذي يحدث له. وفي سخطه وتدمره يفقد التواضع ويفقد الانسحاق للذات يجلبان الدموع...

وفي التدمير، يشعر الإنسان أنه مظلوم، وبالتالي يدين من ظلمه. وهكذا ينتقل من التفكير في خطايه، إلى التفكير في خطايا غيره... وهذا ضد منهج

الدموع...

والذي يتذمر قد يتذمر على الله نفسه، فيجذف!!

وفي كل ذلك يكون بعيداً عن الجو الروحي الذي تسيل فيه الدموع... بل إنه في تذمره قد يدخل في قساوة القلب، وفي الاعتداد بالذات، وفي الغضب والحق... ولا يمكن أن يجد دموعاً وسط هذه المشاعر الخاطئة كلها... إن كانت الدموع تتفق مع التواضع والانسحاق، فلا شك أن كبرياء القلب وكبرياء التصرف، كلها تمنع الدموع...

وإن كانت الدموع تتفق مع لوم النفس وتبكيك الذات، فبالتالي يكون الفخر والحديث عن فضائل النفس، من الأسباب المانعة للدموع.

فلا يمكن أن يبكي الإنسان وهو سعيد بذاته، يرفع شأنها، ويمتدح صفاتها!!

نفس الكلام نقوله عن العظمة، ومحبة المناصب والامتكات الأولى، ومحبة الكرامة ومديح الناس... فكل هذه تمنع الدموع تماماً... لأن الدموع تتفق مع الشعور بالضعف، وليس مع الشعور بالقوة والعظمة والسلطان...

كذلك فإن الافتخار بالدموع، يمنع الدموع.

الفخر والكبرياء

فقد تسلك في الطريق الروحي السليم، وفي حياة التوبة وحياة الاتضاع والانسحاق، وفي كل مسببات الدموع... فإن أتتك الدموع، يحاربك الشيطان

بها لكي يوقعك في المجد الباطل. فإن فرحت بالدموع، أو افتخرت بها، أو أظهرتها قصداً، حينئذ يمكن أن تمتنع عنك وتنقطع... ولذلك قال القديسون:
إذ ما أتتك الدموع، فلا تنشغل بها.

إنما فكر في الأسباب التي جلبت الدموع.

إن بكيت مثلاً بسبب خطاياك، فكرر في بشاعة تلك الخطايا، فيزداد انسحاقك وتزداد دموعك... وحاذر أن تقتخر بدموعك أو تفرح بها، لأنك في هذا الوقت تكون قد نسيت خطاياك، وانتقلت من الانسحاق إلى الكبرياء، أي انتقلت من مسببات الدموع إلى موانع الدموع.

ولتكن دموعك بينك وبين الله، لا تكشفها للناس، ولا تتكبر بسببها. فكل ذلك يمنعها بعد مجيئها.

التهاون والفتور

الدموع تتناسبها الحرارة الروحية بكافة أنواعها، سواء حرارة الحب، أو حرارة التوبة، حرارة التأثير.

أما الإنسان الفاتر، فليست له دموع.

يحتاج أن يعود إلى محبته الأولى، وإلى حرارته الأولى، فتعود إليه الدموع. "فَأَذْكُرُ مِنْ أَيْنَ سَقَطْتُ وَتُبُّ" (رؤ ٢: ٥).

وقد يأتي الفتور نتيجة للتهاون أو للرفاهية.

عالج التهاون إذاً في حياتك الروحية، واحذر الرفاهية.

إن داود النبي كان في مذلتة يمزج شرابه بالدموع (مز ١٠٢ : ٩) "وبدموعه
كان يبيل فراشه" (مز ٦ : ٦). أما في حياة الرفاهية، فلم تكن له دموع، بل
كانت هناك الشهوة والخطية. كذلك كان ابنه سليمان لم يستفد من الرفاهية،
بل انتفع لما عرف أن الكل باطل وقبض الريح.
صلِّ إذاً وقل: أعطني يا رب ينابيع دموع كثيرة.

الفهرس

٥	قصة هذا الكتاب
٧	قمة الدموع.....
٨	تطويب البكاء
١٠	الفصل الأول أنواع من الدموع.....
١٢	دموع الصلاة
١٣	دموع الندم والتوبة
١٦	دموع الحزن
١٨	دموع الفراق
٢٠	دموع التأثر
٢٢	دموع المشاركة
٢٣	دموع الفرح.....
٢٣	دموع مرفوضة
٢٥	دموع الشهوة
٢٦	الفصل الثاني الدموع في الخدمة.....
٣١	أسباب البكاء في الخدمة.....
٣٢	الفصل الثالث القديسون والدموع.....
٤١	الفصل الرابع مسببات الدموع
٤٢	١- الرقة والحساسية.....
٤٤	٢- الشعور بتقاهة العالم

- ٤٦ ٣- تذكر الخطايا
- ٥٠ التجارب والضيقات
- ٥٣ تذكر الموت
- ٥٥ الفرح والتأثر
- ٥٧ الصلاة
- ٥٨ الشعور بالعجز
- ٥٩ الشعور بالتخلي
- ٥٩ الشماتة
- ٦١ الفصل الخامس معوقات الدموع
- ٦٢ قسوة القلب
- ٦٣ إدانة الآخرين
- ٦٦ العنف
- ٦٦ الغضب والحقد
- ٦٨ الحياة في الخطية
- ٦٩ اللذة والرفاهية
- ٧١ التذمر
- ٧٢ الفخر والكبرياء
- ٧٣ التهاون والفتور

في هذا الكتاب

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين

ما أجمل الدموع في سير القديسين. إنها دليل على حرارتهم الروحية وعمق حبهم لله.

وفي هذا الكتاب نحدثك عن كل أنواع الدموع، الروحي منها وغير الروحي. ثم نركز على الروحي.

ونشرح الدموع في الخدمة وفي سير القديسين وفي أقوالهم.

ثم نذكر مسببات الدموع في الخدمة وفي سير القديسين وفي أقوالهم.

ثم نذكر مسببات الدموع في الحياة الروحية، وأيضاً معوقاتها لكي نتجنبها...

فإن كنت تحب الدموع في روحياتك، يمكنك أن تقرأ هذا الكتاب.

البابا شنودة الثالث